صالحيني أيتها الذات

مجموعة قصصية



سليمان محمد أبو شارب

صالحيني أيتها الذات

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (2013/7/2710)

أبو شارب، سليمان محمد

صالحيني أيتها الذات: مجموعة قصصية / سليمان محمد أبو شارب/ عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2013

ر.أ (2013/7/2710).

الواصفات: / القصص العربية // العصر الحديث

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 978-9957-555-44-0



تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله - مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
تلفاكس: 5353402 6 962+ - خلوي: 95667143 7 962+
ص.ب: 520946 عمان 11152 الأردن - E-mail: darghidaa@gmail.com

صالحيني أيتها الذات

(مجموعة قصصية)

سليمان محمد علي أبوشارب

الطبعة الأولى

2014 م – 1435 هـ

الإهداء

إلى نورين ما يزالان يسطعان في عتمة حرفي

... أبي .... أمي



الفهرس

أسام للبيع

انجبت أم عدنان مولودها التاسع، وزوجها فخور به جدا ويطمع بالعاشر، وأمنيته الأخيرة أن يأتي قبل وفاته، فيكون أبا عشرة عيال.

حال البلاد بأسرها كحال أبي عدنان فالمواليد بازدياد والمصاريف ثابتة والتأمينات الصحية والتبعيات المستحقة من الدولة بدأت بازدياد واضح،وصندوق النقد الدولي لم يغلق دفتر الديون، وإن بقي الحال على حاله ستتفاقم مشكلة الاقتصاد على حد قول المسؤوليين مع أني مقتنع تماماً بقضية الأرزاق المقسومة.

أوكلت الدولة همومها إلى مسؤولي حكومتها، وبدأ كل مسؤول بابتكار الوسائل التي تحد من الإنجاب، وكأن أرزاق الناس المقدرة هي التي ستغلق ثغرة الاقتصاد المكلومة!

لقد قدم رئيس الوزراء السابق استقالته لفشل خططه في الحد من الإنجاب مع إنه لم يضع جهدا للحد منه فقد قام بوضع إعلانات لتنظيم الإسرة، وتوزيع الحبوب التي تسد نبع الحياة بالمجان وكثير من

الوسائل، إلا أن نسوة البلاد ما زلن يتشبثن بالمولود الذي يأتي ورزقه معه، ونتيجة محاولاته قد باءت بالفشل السريع.

حانت الفرصة لرئيس الوزراء الجديد والذي زينت ملامحه خيوط الدهاء، عدا عن زينة ابتسامته الساخرة لوجهه المتعجرف، لم يكن رجلاً كباقي الرجال الذين رأيتهم في حياتي ، وليس كأحد معلمي أيضاً، هو رجل زاده الله بسطة في الجسم، ومشية اختيال لم أعهدها على قبله، فضلاً عن أناقته التي تكذب واقع اقتصادنا الجاري.

بدأ رئيس الوزراء الجديد فيما انتهى به زميله آنذاك، فقد جدد من الإعلانات بشكلانيات براقة،وكثف من المحاضرات،وقبيل كل زواج جديد وزعوا المنشورات التي تخص الموضوع ذاته،وحتى عند الصاغة أصبح لكل مخطوبين منشوران جاهزان بجانب الذبلتين.

.... وكأنها الحرب أو الطامة لقد أصبح هذا الموضوع يؤرق العامة لما أحدثه الإعلام من صخب نتيجة دورانه على السنة الناس ، حينئذ نظرت الى جهة الغرب وبت أتراسل معها بنظرات العيون لعلها تأتي وتجد ما تطمح عندنا وتعيش واقع الإنجاب كواقع بات يناهز أحلامها رغم تكثيفها للجهود المبذولة للحد من الإنجاب، لكن لتحقيق هدف مخالف تماما لمسار دولتنا.

اجتمع رئيس الوزراء مع طلبة الصف العاشر في الدولة ذكورا وإناثا، لتوعيتهم بأهمية الحد من الإنجاب، فقد وصلت خططه حتى المستقبل البعيد، وكأنه أنجز القريب لينتقل للبعيد مع أن بعيدنا سيجاور قريبنا مهما حيينا وضجت الدماء بعروقنا...

كنت بينهم آنذاك، وحدقت بوجه المتعجرف وخشيت كثيرا على آذان من يقربونه بالجلوس، ورأيت فيه ما لم أر بغيره وتوقعت منه ما لم يأت به غيره، سألته ببراءة :

- وأنت يا سيدي،هل ستنطبق القوانين عليك كما ستسري علينا؟

ضحك على غفلة ضحكة أرعبتني فدعاني إليه فأقبلت عليه، فقبلني والحسد بعيون زملائي الطلبة، بينما العجب يستقر في عيني.

قال لي:

- أولستُ من الشعب؟ يا بني ما يجري عليكم سيجري علي وكلنا تحت مظلة القانون.

فسألني عن سبب سؤالي،فلم أجبه وسألته بغيره:

- هل ستلتزم به بالكلمة والفعل وإن خالفت بالكلمة أو الفعل ستبطل قوانينك؟.

أبعدوني عنه وأرجعوني إلى مكاني وظن أني مختل يبحث عن شهرة وسط زملائه.

عدت إلى بيتي متعجبا من نفسي ومن أسئلتي، وجدت لسؤالي الأول مسوغا ، فقد ظننتُ أن هذا الجسد الضخم سينجب من البنين ما لا حصر لهم، لكني تعجبتُ للسؤال الثاني فأقفلت عنده باب العجب وفتحت باب بيتي مشتاقا لغداء أمي.

فشلت كل خططه، ودائرة الأحوال المدنية ما تزال تستقبل العديد من أسامي المواليد الجدد، فداعبني احساس غريب بردة فعل رئيس الوزراء فكانت فاجعة كما توقعت.

لقد أصدر قرارا لم تعهده البشرية من قبل لقد قرر بأن يبيع الأسامي، فكان الحدث الأعظم لكل أذن تسمع، لقد وضع قوائما بكافة الأسامي المعروفة وكل اسم بسعر، وذلك حسب تاريخه وشهرته وعظمة الشخصيات التي حملته من قبل، وبقيت هناك فئة للأسامي الأخرى التي لم تذكر في القائمة فكان حق تقدير سعره لدائرة الأحوال المدنية، والأسامي قليلة التكلفة هي التي لا تحمل أي معنى أو أنها مزرية، مزرية للغاية.

أهل قريتي لن يتمكنوا من شراء الأسامي التي تليق بتاريخهم وتراثهم الشعبي، لأنها باهظة الثمن، وإن أقنعوا أنفسهم بالتنازل عنها فلن يجدوا أمامهم سوى الأسامي المزرية ولا ينفع بالوقت نفسه أن يتركوهم من دون تسجيل بالدولة، لذلك لجؤوا لقضية الأسمين فيصبح لابنهم اسم في الدولة واسم بينهم شائع مع أن رئيس

الوزراء قد حذر من هذا التحايل وأكد أنه في حالة اكتشافه سيغرم المخالف وسيحبس عامين .

وكما وعدني سيكون أول الملتزميين ولكن ماذا سيضيره إن كان بإمكانه تسمية أبنائه بأي اسم يريد .

كل قانون وله منافذه،وليس منا من يلتزم تمام الالتزام ، فقد قرر أهل القرية بان يسجلوا ابناءهم بأسماء قليلة الثمن وينادونهم بأحب الأسامي، وعم الموضوع في مدرستنا بعد حين، لدرجة أن المعلمين بدأوا بكتابة اسم الشهرة بجانب الاسم الرسمي حتى ينادوا به طلابهم.

ما هي سوى سبع سنوات حتى عدت الى أحضان مدرستي كمعلم فيها وكلفت بتدريس الصف الأول، وحينما تسلمت كشف أساميهم، وضعت مبدئيا الأسامي المنادى بها بجانب الأسامي المسجلة، لأن الطلبة أنفسهم لا يعرفون أساميهم الحقيقية، وبالنسبة لرئيس الوزراء صاحب الخدمة الأطول في عهد رأس الدولة - وذلك لنفس خيوط الدهاء التي تزين وجهه والتي بدأت تلوثها التجاعيد- قد قرر بأن يجتمع مع طلبة الصف الأول ليرى مدى تطبيق وتفعيل الأسامي المباعة على نوعية أساميهم، ويسألهم بشأن الموضوع نتيجة شكوى دامت طيلة السنوات الماضية من جهة،

وليطلع نظيره الأجنبي الزائر على مدى حسن تدبيره من جهة أخرى.

وفي اللحظة التي نادى فيها على أسامي طلابي لم يجبه أحد رغم اكتمال عدد الحضور وما زال ينادي حتى وضحت له الصورة فحمل ورقتي، وبدأ يناديهم بالأسامي غير الرسمية فأجبوه على الفور ليكون المخالف الاول لقانونه العابر فذكرته فيما مضى وباجتماعه بنا منذ كنا في الصف العاشر فعقد حاجبيه وصحب معه نظيره الأجنبي وانطلق. وما هي سوى أيام وسط ضجيج صاخب من الصحافة التي شهدت مواجهتي له قرر بأن يلغي قانونه الخانق.

فعدت وطلابي إلى قريتنا والزغاريد تكاد تصم آذاننا فقد انجبيت أم عدنان مولودها العاشر...

النهاية

أفواه منسية

لم يبق سوى القليل، الشوارع صاخبة والأفواه نادبة والعيون ندية، قد تغطست بمكحل عميق بلا قرار، فغدت سوداء قاتمة مبرهنة على عروبة بحتة.الطفل ما يزال يصرخ،وسارة تضع يدها على خاتم خطبتها فخطيبها هناك،والخالة عائشة تحدق بقن الدجاجات، فهن المتبقيات لإمدادها بقوت الحياة، فلقمة العيش صعبة، وما زالت تحتاج للحياة، فالأمور شائكة، والعقدة صائرة، والنتيجة مسد لفضول قاتل، وأمي هنا على زاوية الباب الخشبي المكسورة أطرافه، متكأة على عكازين لا يمدان الحضارة بصلة، تنتظر من طالت ساعات غيابه، وأنا ما أزال ها هنا وهناك، على دقات الهمس، وحرقات الصمت، ألوك جرعات الانتظار ببصمات خفية مرتعشة بهموم صغيرة، وما الهموم عندي سوى لعبة خشبية حولتها لآلة ميكانيكية بمجرد ما رفعتها على عجلات أربع، سرقتها من حاوية البلدية، فأنتظر الشارع كي يهدأ لأعود فأمارس ما كان ولما تاقت له

نفسي من جديد، فضربات أمي التي انهالت علـي كقـط جـائع لمجرد التخريب لن تذهب سدى سأعوضها لعبـا وسأصـرخ بعمـق الحيـاة، فطفولتي تنتظرني.

الناس ضـجت بالـشوارع،والأصوات تعالـت حتـى العنـان، فلامست السماء مـستنجدة الرحمـة، صـارخة: ثـورة ثـورة! والحرقـة بانت بالأعين، والوجنتان شـاهدتان بـالحمرة علـى وجـه كـل ثـائر، والأطفال يـضحكون ويهللـون وراءهـم ثورة ثـورة! ولا يعـون مـا يقولون! وبالنسبة لي فإني أنتظر الشارع كي يفـرغ لألعـب بلعـبتي.لم يعد هناك أي مكان فارغ، فالأجواء عارمة، والحد قد فاق المـسموح، فالقلوب قد بلغت الحناجر، والناس ضحايا جوعين:أحدهما الجـوع المعروف، والآخر يخـص المعرفـة، وعمـا أتوقـع أن كليهمـا مرادفـان لبعضيهما بالوقت نفسه، فوقتها كان أبي ينقل الحنطـة ومونـة البيـت المتناقصة بواسطة الحاوية، لقد كانت جديدة لم تكن معهـودة لنـا مـن قبل، منظرها جميل، ولونهـا مـدهش، والأجمـل مـن هـذا وذاك، هـو العجلات التي تمشي عليها، وقتهـا أصـابتها عـيني واحتلتهـا نفـسي، واليوم ها أنا أقف عند أعتاب حلم يتحقق وهاهي عـربتي بيـدي، في ذلك اليوم الذي شـاهدنا بـه التلفـاز شـعرت بـالخجـل وهـو يتـسلل لجوف أبي حينما رأى المرأة الغنية وهي تلقي كيس المهملات بالمكان نفسه الذي ينقل به أبـي الطعـام الى أفواهنـا، وقتئـذ عرفنـا الغـرض

الرئيسي للحاوية، وقد خابت ضنوننا بالبلدية بعدما أصبناها بسهام المدح وتبشرنا بالخير القادم من سراب قاتم، وبالمناسبة ما كانت تلك المرأة الغنية سوى خادمة تعمل عند أصحاب ذلك المنزل الفخم، وما المنزل الفخم سوى كماليات لا ترى إلا بالأفلام. وليعيشوا نفس حياة تلك الخادمة خرجوا، خرج الشباب يحملون أرواحهم على أكفهم يستنجدون بالقدر لأن يضحك فلعل المطالب تتحقق ولعل القلوب تلين.

مكثت مليا،ولم أطيق المزيد من الإنتظار، فهممت بالإنطلاق إلى أحضان التلال، لعلي أجد فيها ما يؤنس طفولتي، حتى لو كانت الأراضي هناك وعرة ولا تصلح للإنزلاق كالشارع،فاعترى طريقي حسان خطيب سارة سألني عن مبتغاي فأجبته بمرامي. ولم أكد أفرغ من كلماتي حتى غلت الدماء بشرايينه، وطفح الغضب عنده، متعجبا من تصرفاتي، فأنا أطلب اللعب وهم يذهبون للموت يطالبون بلقمتهم وأبسط حقوقهم،فبررت تصرفي بأنني صغير وازداد غضبه ماحيا حق الصغر في زمن الآخر.فأمسك فمي وقال كلمات لم أفهمها لكنها أرعشت حوائشي.

-يجب أن تثور معنا. يجب أن يثور الجميع، الصغير قبل الكبير، الشيوخ قبل الشباب، والنساء قبل الرجال.هكذا حتى يتذكروا هذا!!

فترك فمي بعدما شد القبضة وأحكمها، وجعلني بصراع أبحث عن اجابة شافية لآلية نسيانهم لأفواههم. لكني لم أزد على التفكير لحظات حتى وصلت للتلال، ولم أعز كلام حسان أي بال، فمن يوم خلقه وهو مغرور بذاته، متفاخرا بثقافته الزائدة،لكن مهما كان الأمر فلن تثني ثقافته عن لعبتي،فخرجت وقضيت الوقت بين التلال حتى نال التعب مني، فارتميت بين أحضان الطبيعة وسلمت نفسي للنوم الزكي، وغصت ببحر أحلامي حتى الغرق لولا أن أنقذني صوت رصاص متواصل وكثيف ممزوج بصرخات وويلات، حسبت بداية أن الأمر عبارة عن حلم وغمرني خاطر قاتل تماهى بتيهاء جهلي بأن الشرطة قد أطلقت الرصاص على الثوار لمجرد المطالبة باللقمة، لكني سرعان ما محوت هذا الخاطر من مخيلتي فالجيش يستحيل أن يقتل أبناء عمومته فهم أقارب والدم الذي يتدفق بعروقهم ما هو سوى دم عربي واحد ليس إلا، فكسوت خاطري برمال التقاليد الذين يحملونها ويتوارثونها، فربما أنهم اعتقدوا أن الثورة عرس قائم وبدأوا بإطلاق النار، لذلك وقفت واثبا على قدمي كالطود، باسطا يدي كجناحي نسر، منطلقا للشارع مسرعا كالجن. وعربتي بيدي،

ويدي عليها محكمة القبضة، فلقد حان وقت اللعب، فالشارع قد غمره الهدوء بحنانه، وقد عم الصمت أرجاء المكان، ولم يعد هناك هتفات ولا شعارات، فانفتحت نفسي على اللعب، فزدت من السرعة كي تقودني قدماي الى مالم أتوقعه،حيث حكم الظلم على الشارع بالصمت الإجباري، فالقتلى بكل مكان، والجثث موزعة على الأنحاء، كل ناحية قد أخذت نصيبها بالتساوي وبزيادة، فلقد فعلتها اليد العربية وانقرضت الدماء الأخوية، فلم يعد بالأجساد أي دماء أبية، ولن يستشعروا لذة العربية، فلقد انهارت وتراكمت على صفحات الزمان، شاهدة على طامة المكان، اقتربت من الجثث محاولا أن أتفحصها لكنها خالية من الأرواح، فالقاتل فنان مدرب لعقود، ولم يصنع شيء والآن قد صنع بقدر تعطشه للفعل منذ عشرات السنين، بقيت أفكر هكذا والدموع تنهال على وجنتي كرذاذ مطر، حتى التقيت بجثة حسان، لقد ابتسم لي ووضع لمساته الأخيرة على وجهي وشعرت بحرارة دمه على خدي، فحاولت أن أسعفه إلى خطيبته بعربتي، لكنها خانتني، فلقد كسرت ولم تتحمل الجثة، فربما أنه بالفعل كما يقولون أن مال الحرام لا يدوم، فهدئت الأنفاس،

واستقرت الأوضاع، وباتت الأمور على ما يرام، فالحياة أصبحت تدب بقلوب صامتة، والأحلام تنساب مع دماء متدفقة، فالطفل قد قتله صراخه، وسارة ما زالت تمسك خاتمها بل شدت القبضة، والخالة عائشة ما زالت تطارد الدجاجات حتى تعود للقن خوفا عليها من الرصاص، بينما أمي ما زالت تحاول فتح الباب الخشبي المكسور لعلها تصل الى من طال غيابه، وأنا ما أزال هنا ابحث عن الذي سيذكرني بفمي.

النهاية

الطبق الأبيض

عبر الممر الطويل الذي يقسم السوق إلى قسمين، قسم لليمين والآخر بالجهة المقابلة، إلتفت يمنة ويسرة وأنا أرى كل ما يجول في خاطر أي إنسان من متاع وملذات، وقد كان أكثرها تجوالا في خاطري تلك الأطباق المصنفة من الطعام والوانها الجذابة، لكن مع كل هذه المميزات والألوان المثيرة لي كجائع، إلا أنه لم يستدع انتباهي إلا نوع واحد فحسب والذي يرتع بين أحضان الطبق الأبيض، حينئذ تمنيت أن تغوص يداي وأسناني في ذلك الطبق وأجعل محتوياته عبارة عن حطام ألوكها في فمي، ولساني يقلبها على مهل لأتلذذ بطعمها قدر الإمكان، ولأحقق هذه الأمنية تفحصت ما في جيبي من نقود، وعندما ظهرت نتيجة الفحص وجدت أنها لا تزيد عن تكاليف مواصلات طريقي للجامعة إلا القليل والتي لا تكفي إلا لشراء قطعة واحدة من البسكويت المعتاد، لأشتريه بالفعل وأضعه في حقيبتي دون أن أشتهيه، فقد كنت مشغولا بموقع آخر من شهيتي والتي تشير بجميع سباباتها نحو ذلك الطبق. الطبق الأبيض!

على العموم لن أكترث، فأنا لست طفلا صغيرا كي يلتصق بزوائد ثوب أمه ويصيح كي تشتري له أمه ما يريد،سأكتفي بما أعطيت وسأقتنع أما شهيتي فلها رب يرعاها.

إلى مكان الحافلة توجهت، وتحت المظلة الرئيسية وقفت، ثم جلست لطول المدة الزمنية التي ستقطعها الحافلة للوصول إلى الموقف. كغيري من الحضور ضاقت نفسي على صدري حتى اضطررت إلى التأفف فلا يوجد شيء أصعب من الانتظار ولكن إن وجد طفل خفيف الدم كهذا الذي بجانبي فإن الأمر سيكون مختلفا تماما وستتبدل قوة التأفف إلى لهيب من الضحك المستمر. فضحكاته وحركاته البريئة كانت تضفي على الجو شيئا من البهجة والسرور، حتى تمنى كل رآئي له أن يطول موعد الحافلة أيضا وأيضا.

تمنيت في هذه اللحظات أن يكون لي أخ مثله ظريف يحبه الجميع، يزيل الكدر ويأتي في الوقت المناسب بخفة دمه، لقد أحببته من فيض قلبي وحاولت أن أعبر عن حبي له بأن أعطيه ما في حقيبتي من بسكويت، فقبلها مع قبلة، أعادت لي ما تمنيته من لحظات سابقة والتي ربما لم تخرج من بوابة مخيلتي بعد، أما أمه فقد شكرتني وحيت ما بداخلي من اهتمام ومحبة، وأكدت على شدة الذوق لدي، ولتبرهن على كل ما قالت من كلام أرادت أن تعاملني بالمثل، لذا أخرجت ما في الكيس الذي كان في حجرها ومددته نحوي وبعد الحاح شديد منها مددت يدي تجاه الكيس والطبق الذي فيه وأخذت قطعة واحدة مما في الطبق الأبيض!

المطار الأخير

لست ذا وجوه عدة،حتى صاحب الاثنين فإني أنبذه، إن كانت طبيعة الحياة تفرض علي هذا فاعذروني حياتكم لا تروقني، كلما حاول أحدهم أن يقترب مني كي يجعلني عضوا شديد الانتماء لأفكارهم ومبادئهم سرعان ما ألملم شتات نفسي وأنطلق لنحو البرية أسقط دموعي بما حملتنا من هموم ثم أهب واقفا بكلتا قدمي مسترجعا أنفاسي الضائعة وأعود فمهما طال الغياب لا بد لكل حي أن يعود وسنبقى نعود حتى نرجع للمكان الأصيل.

كانوا ثلاثة. رجلان وامرأة التقيت بهم في المطار،سألوني عن طبيعة عملي قلت ببساطة مضيف، أرخى أحدهم أذنه وتوهمته يريد أن يسترجع ما سمع قلت له مرة أخرى ولكن هذه المرة بقوة قائلا مضيف،مضيف طيران، حينئذ أرخت المرأة نفسها لشبح الضحك فشاركها الأول ما هي عليه أما الثاني فقد اكتفى بالإبتسامة وأردفها بجملة ملئتني حيرة ممزوجة بسخط وتهكم'لنا لقاء' ثم رتب على كتفي وانطلقوا.

ربما بدا الأمر متعارف عليه بأن هذه المهنة تروق النساء دون الرجال، لكن أسلوبي المتمكن الذي خللته بكسر الواقع وتغيير المعهود جعل المسؤول يرضخ لما طلبت فلعله على يدي قد يأتي بما لا يتوقع والأمر عبارة عن تجربة، إن لم تصب لن تؤذي، لكن الكل علم بأمري كأول مضيف طيران والإعلام قد سطر اسمي من ضمن الأوائل، وأنا فخور بما أنجز، وغرابتي من هؤلاء الثلاثة لم تسعفها قضية العمل غير المعهود، هذا فهم عما أتوقع من أبناء الصحافة ويعلمون فلا داعي للضحك والسخرية، فضلا إنها لقمة العيش.

تمت الأمور الاجرائية على ما يرام، وانطلقت الطائرة بسلام، أفكاري المشوشة تجاه الثلاثة لم تقدني إلى التكاسل بعملي، فعملي من ضمن أولوياتي، وأولوياتي خط أحمر، في الشهر الماضي كانت خطبتي على سناء، جاءت خطبتنا بعد صراع عشق دام على مدار سنوات جامعية أربع، كافحنا كثيرا حتى نصل إلى هذه الخطوة، وشجعتني كطفل لحوح على العمل بأي مهنة مشروعة لنصل لما نريد،وبكل يوم أزيد بها تعلقا، باختصار هي عالمي، يمكنني أن أفعل أي شيء إلا الحرام، كي أرضيها وهي لواقع حالي متفهمة لا تتخبط بدائرة المستحيل تقتصر على دائرة الممكن دون أن تتخطى مدارها،وأنا أحبها أحبها لدرجة أتمنى أن يتسع قطر دائرتي الى اللامعلوم فلا يكون للمستحيل أي مكان بدائرتنا.

تحثني سناء دائما على العمل الدؤوب، وإبراز شخصيتي بأن أثق بنفسي وأخرج من أعماقي أن أرتع ضمن دائرة مبادئي فلا اجتازها ولا أسمح لغيري بأن يخترقها. في مرة أعطتني خاتما سألتها عن سبب نقش اسم ديكارت عليه قالت:

- جملته أنا أفكر اذا أنا موجود تذكرني بك حبيبي.

- بي! كيف؟!

- أنت تحرص دوما على أن تثبت وجودك بعد تفكير مرير،لا تتخذ الخطوة إلا بعد اخضاعها لعملية التفكير الناجحة.

-سأحتفظ به ما حييت.هذا وعد

ربما أصابت سناء فيما قالت فلولا ما كنت صيادا ماهرا للأفكار المتطايرة بأفق المجهول لما حصلت على وظيفة تحقق لي أبسط أحلامي،ولولا قضية الجديد التي أقنعت بها المسؤول لما سطر اسمي صفحات الإعلام لأيام ولما كنت لما عليه الآن. كنت في السماء أقوم بمهامي الوظيفية كما الطيور.الطيور تحمل الطعام بمناقيرها وهي محلقة بالسماء كي تطعم صغارها.كم يستهويني هذا الشعور الغرائزي، كم به أسعد الركاب، وهنيئا لي بسعادتهم فهم بأمانتي ريثما الوصول، وقتها أنجبت عبلة مولودها الأول الذي جعل سناء خالة، وعمت السعادة أرجاء المكان، وأضحى الصغار ضحايا الحلوى فهم لها الآن تبعية، وأنا أشدهم تبعية لسناء حتى بتفكيري

وخلوتي لدرجة أنني بت أخلط الأمور ببعضها فمجرد وصولي المطار المعني بتلك الرقعة هاتفتني سناء وحسبت أن الرقم محلي مع أنه بالتأكيد دولي كون حبيبتي ما زالت تقطن الديار، بشرتني بمولود أختها بلهفة.

- عقبالنا.

ضحكت على حياء فغيرت الموضوع بطرف عين

- لما استشعر من كلماتك انك لا تحب أختي

- لا شيء يا حبيبتي يجعلني أكره أختك لكني أمقت تصرفاتها فهي أمام زوجها بوجه وأمام الآخرين بوجه آخر.

- أنا معك يا حبيبي وأعلم مدى بغضك لأصحاب الوجوه العدة،لكنه زوجها ويجب أن تظهر أمامه بمظهر لائق.

-جميل،لكن من الأجمل ان تظهر أمام زوجها وغيره أيضا بمظهر لائق اليس هذا أفضل؟!

ضحكت وغيرت أنا الموضوع هذه المرة وخضنا بأمورنا الخاصة،وتحدثنا ساعة جعلتني أخوض ببحر احلامي الذي لا يسع سواي وحبيبتي،كنت بكل كلمة تقولها أزداد بها تعلقا فعقلها الواسع يجعلني بها فخورا،غير أنها دائما تفخر بنباهتي وأساليبي المحنكة فقد كانت طالما تقول لي:انت مكانك القيادة العسكرية فحسب فأنتما مكملان لبعض. ولولا علمي بمدى حبها لي لقلت أنها مبالغة جدا

بقدراتي التخطيطية وأساليبي المفعمة بالإدارة الناجحة المتمكنة. أنهيت المكالمة واتجهت إلى قضاء حوائجي، فصادفني ثلاثتهم مرة أخرى ونالني العجب كل العجب كيف أنهم كانوا في ذاك المطار واليوم هنا في هذا المطار، مضيت بطريقي وكأنني لم أرهم، فقال أحدهم الم أقل لنا لقاء فاستمررت بالمضي وكأنني لم أسمع شيء، وكثير من الأسئلة تدور بمخيلتي قطع دورانها الضحكات المتتابعة النابعة من في تلك المرأة والتي تذكرني بضحكات خطيبتي لكن شتان ما بين الضحكتين. ولا بد أن شكل وجهها المغطى بنقاب ملفق قبيح خلاف ضحكتها تلك التي ذكرتني بخطيبتي وحينما قادني تفكيري إلى مصدر الشوق في قلبي تلهفت لها وحينما لم أجدها انطلقت إلى برية الدولة التي أنا فيها وقمت بصنع ما اعتدت على صنعه في ظل هذه الظروف.

هي مرة وحيدة غضبت منها، وذلك حينما أشارت علي بأن ألتحق بمنظمة سياسية تقوم على مبادئ مخالفة لما اكتنزته بداخلي من قيم وأفكار. غضبت وقتها غضبا شديدا فهي تعرفني جيداً، ولا يليق بها كمتفهمة أن تطرح علي فكرتها حتى لو كدنا نموت جوعا أو كانوا بأمس الحاجة لي، لم يتبق على مغادرة الطائرة سوى القليل فعدت إلى مقري واستعدينا للانطلاق، قمت بمهامي في الطائرة، وأشار لي أحدهم بإصبعه ولبيت طلبه، لقد كان صاحب الابتسامة

طلب ثلاثة أكواب حليب له كوب، والآخرين للرجل والمرأة الـذين يجلسون خلفه، لقد كانوا هم الثلاثـة ذاتهـم، أخفيـت آثـار الدهـشة واحضرت ما طلبوا، فشكرني الآخر وقال إن الحليـب ينـشط العقـل ويفيد الصحة أنصحك بتناوله يوميا فصحتك تهمنا.

على أرض ذلـك المطـار هبطـت الطـائرة، فغادرهـا الركـاب ونزلت خلفهم متجها نحو مهامي، هناك وفي ذلك الـركن مـن المطـار كاد عقلي أن يخترق حدود رأسي فيخرج طائرا تاركـا وراءه الجنـون، حـدقت في ملامـح الـسائقة وإذ بهـا خطيـبتي سـناء ركـضت إليهـا مهرولا، فتفاجأت بالرجلين يجلـسان بالـسيارة فعرفـت علـى الفـور بأنها صاحبة النقاب، لم يكن لي فرصة بالمزيد من التفكير ولا لطـرح الأسئلة، هي نفخات مـن عبـوة كانـت بيـدها حتـى أخرجتني عـن الوعي. فاستيقظت في مقر المؤســسة لـساعة أعطـي بهـا قـراري إمـا الانضمام وإما الخروج من هذه الحياة بأسرها. حينئذ وضـعت يـدي على خاتمي المنقوش فنزعته بقوة وألقيته صوب ذلـك المطـار، المطـار الأخير.

النظرة الأولى

زخات المطر ما زالت تنصب على الأرض بغزارة،والناس مشتركون بالخطوات السريعة، همهم واحد يسعون لهدف واحد فالكل يريد أن يصل لمشاغله، ترديداتهم واحدة سواء ظهرت أم بطنت ... اللهم نفسي.

وأنا بالطبع مثلهم فلست أفضلهم، وبتاتا لم أمنح لنفسي هذا الحق غيرالمشروع، لكن إن كانت العاطفة تستجديني فإني سأطرق باب ذاك الحق بعنف ولن أترك امرأة خمسينية تقف على ذلك الشارع المتعرج، والذي داهمته المياه من كل حدب وأسفل ثوبها بات خرقة منقوعة.

الطلب على سيارات الأجرة بازدياد، فهنيئا لسائقيها وبؤسا لراكبيها، فالذي يركب الحافلة أصبح من هول المطر يركب سيارة أجرة....آخر زمانا! وأنا هنا مكاني ضحية البلل أنتظر سيارة أجرة كي تقلني الى جامعتي، فاليوم هو اليوم الأول للبدء بالتدريس ولا يعقل ان أتأخر، فالمدرسون جدد والنظرة الأولى للطالب بالنسبة لهم في غاية الأهمية، لذا سأحظى بنظرة أولى ايجابية والتوالي للقادمات.

غمرني الحظ بحنانه...وسيارة أجرة بقربي تقف، حسبتها بالبداية معطلة، لكن توقعاتي الأولية ونظرتي البدائية خانتني هذه المرة،فالسائق ينادي:

-راكب

-أكيد

-ماذا تنتظر ...هيا

هناك شيء ما،ينقصني،ثمة هواجس تعبث بداخلي،تعجز قدمي عن المسير،فنغمات الترجي التي استشعرتها نابعة من في تلك الخمسينية جعلتني أطلب من السائق ينتظر لدقائق،حتى اسأل المرأة عن حاجتها ،فاقضيها لها بطريقي وأصل بها الى مكانها على حسابي الخاص، فهذا ما أملته علي عاطفتي، وأمرتني به أخلاقي...

-هيه يا شاب... ياحنون إن شئت اذهب لها فأنا على عجلة

-لكن...

-هيا...اصعد وإلا..

غريبة هي الحياة، لو لم تكن الظروف الجوية سيئة لقضيت حوائجي، التي تشغل من زماني وقتا أكثر من الوقت، الذي سأنادي به للخمسينية، التي سيكاد البرد يقتلها ولفعلت ما فعلت رغما عن السائق، وهو ينتظر والبسمة تكشف عن أنيابه كذا ذراعا، فتأكل من وجهه كما أكل من ضميري. لكن هذا الجشع يعلم إن فاتته أجرتي

فإنه سيجد كثيرا غيري في انتظاره فالشارع المتعرج نفسه يكتظ بالركاب على رصيفه.

أعلم أنني سأصل وسأحقق النظرة الأولية الايجابية والتي تكشف عن نوايا خبيثة بعدها، لكن لا بأس إن أبـوا إلا بالعناوين ورؤوس الأقلام،أعلم أنني سأحظى بمكانة مرموقة بينهم؛ لأنني حرصت على الحضور مبكرا خصوصا في المحاضرات الأولى، فهم يحرصون على مجيء كل طالب؛ لأن الطلبة ببساطة يتغيبون عن المحاضرات الأولى، لأنها غير مهمة ومن رسخ قلة الأهمية هذه في عقولهم...الله أعلم مع أنه ويا سبحان الله الأمور البدائية مهمة... تماما كالنظرة الأولى.

النظرة الأولى التي جعلتني اخضع عبدا لشخص الشفقة،جعلتني أنكل نفسي تأنيبا لما فعلته بتلك الخمسينية،وبت أخيرا مصدر الاقبال لهواجس القلق والشك.

نهاية الموضوع لقد أصبحت مجرما،هذا ما قادتني اليه هواجسي عبر تحليلات مديدة، تعجز علم النفس لتسلسلها المتفاني. فماذا لو سقطت مغشيا عليها من شدة البرد، وبعد ذلك ارتفع عليها منسوب المياه، حينئذ سيدخل الماء إلى رئتيها وبالطبع ستختنق وستموت...ستموت لأني ببساطة تركتها ورائي....لأني ببساطة أحرص على النظرة الأولى...

حينئذ سأكون منافقا، نعم فإني أخضعت ذاتي لتناقضات شتى أطبق القناعة بموقف وأنظرها بآخر...لقد أصبحت مجرما وأيضا منافقا.

نعتان ممقتان...ضربتان بالرأس...حينئذ هززت برأسي وعلى حين غفلة قلت كفى!

-لم نصل للجامعة بعد

-لا.لم أعنيك بالكلام

-بسم الله الرحمن الرحيم

وهاأنذا قد أصبحت مجنونا... وبدأت الأفكار من جديد تتلاعن بجحيم رأسي، فماذا لو أنه يعرف أحد زملائي...ماذا لو كان والد أحدهم إذا سيشاع أمر جنوني، فلقد أخذ هذا السائق عني نظرة أولية سيئة وهي الجنون.... وسيكون عقابا لي عما فعلته بتلك الخمسينية، لذلك لن أنتظرا مزيدا من النعوت سأكتفي بثلاثة وسأمحوها بالتكفير عن ذنبي.

-لو سمحت،ارجعني الى المكان نفسه الذي أخذتني منه.

-ولم؟!

-لا يعنيك الأمر كثيرا... ما دامت أجرتك ستصلك.

لم يكن بوسعي أن أحتمل مزيدا من تأنيب الضمير، ولن أخضع نفسي لعملية تفكير طبيبها الشك ليقتلني بفشله، ولن أكون

مريضا بأفكار مصاحبة،سأقضي على الأمر وسأركب هذه الخمسينية.... ولعل القدر يكون في صالحي هذه المرة وتكون ما تزال واقفة.

لم يكن القدر معي، ورجائي لم يصب، فقد قادها قدرها إلى مالم يقدني إليه قدري، لقد سبقتني إلى هدفها، وهكذا أصبحت ضحية تفكير عنيف من شتى المنابع.

- سأتأخر...النظرة الأولية السلبية...مصير الخمسينية...النعوت...الضمير... .

وصلت لجامعتي،حيث قاعة المحاضرات، والخجل يكاد يتسلل إلى موقعه في قلبي، لولا ما سبقه من نواغص مما جعلني لا أبالي للعواقب، لكني لن أهرب من المفاجآت، طرقت الباب ودخلت برأس منحن، وبمجرد ما رفعته كانت المفاجأة.

-يا سلام... الباشا يتأخر من أول محاضرة...في الأيام المقبلة متى ستشرفنا في المحاضرات القادمات؟ بالرغم من أن سيارتي تعطلت لكن مع ذلك أتيت بالحافلة على محاضرتي.

...صمت ممشوق بذهول

-مابك لا تنطق...هل ستأتي آخر المحاضرة تسلم علينا ثم تنصرف.

... صمت ممشوق بذهول ودمعة متغرغرة بضحضاح عيني.

فلم علـيّ أن أتقيـد بـالنظرة الأوليـة؟ وغـيري يفكـر بـآواخر المحاضرات، لم علي أن أشعر بالآخرين؟ وهم لا يشعرون بي، لم علي أن أخوض رحلة تفكير عنيـف تكـاد تـصل حـد المـرض مـن أجـل آخرين؟ والآخرين أنفسهم يقدمون لي المرض كوجبة سهلة الهـضم، لم علي بأن اتأخر مـن أجـل الخمـسينية؟ لكـي لا يهـزأ بهـا غيرهـا، والخمسينية ذاتها تؤخرني عن أخلاقي وتهزأ بي أمام الطلبة.

النهاية

النهاية

البداية كانت بدخولي الجامعة، والسؤال الأول الذي طرق باب الأجوبة لدي: متى النهاية؟ أعلم أنه سؤال غريب بعض الشيء خصوصا في أول يوم من أيام دخول الجامعة، فأنا ما زلت في البداية، فكيف لي أن أفكر بالنهاية من الآن؟ ومن سيتحمل مني هذا السؤال أصلا غير أبي علي.

بدأت عملية الاحتكاك وبدأت عجلات الحافلة بالتناقص بشكل مفاجئ، توقفت الحافلة على بعد مسافة مني، فاضطررت للمشي بضع خطوات حتى أصعد الحافلة ،ولم أتعجب لعدم وقوف الحافلة بمحاذاتي تماما، فأنا راكب جديد فركاب الحافلة جميعهم من قريتي يركبون كل يوم في الحافلة نفسها حتى تصل بهم إلى الموقف، ولم يتوقع أبو علي سائق الحافلة أن أحدا ما يحتل تلك النقطة من الخط الرئيسي كي يصعد الحافلة، فالنقاط التي تدوسها أقدام ركابه، هي هي لا تتغير إلا ما ندر، ولكن نقطتي ستصبح معهودة لأبي علي، حيث أنني سأضطر كغيري أن اسري كل يوم دوام منذ الفجر واصعد مع أبي علي.

دخلت الحافلة والقيت التحية على الجميع، وجلست بجانب الخالة أم نزار تسامرنا الحديث، وسألتني عن الجامعة التي دخلتها، وعن معنوياتي وأشياء كثيرة مشابهة، ولكي أتبادل أطراف الحديث سألتها عن دوامها في المدرسة البعيدة، وهل هي سعيدة في مهنتها كآذنة، فلم تستطع الإجابة لأن الشرطي محمود جارنا ألقى التحية علي وكذلك فعل المعلم القدير أبو إبراهيم، والذي يسكن بعيدا عنا بقليل.

هنؤوني جميعا بدخولي الجامعة، ولم أسلم في الوقت نفسه من نظرات طارق الحادة ، وذلك لزمالتي له في الجامعة، فهو يكبرني بسنتين ، وأذكر جيدا أنه كان يكيدني كثيرا بدخوله الجامعة، فتجاهلت نظراته وابتسمت له، فاعتقدت شيرين الممرضة أنني ابتسم لها فرددت الابتسامة بمثلها، فاحمرّت وجنتاي ، على العموم ها نحن كدنا أن نصل إلى الموقف، فأقتربت من أبي علي ، كي أعطيه الأجرة فلم يأخذ مني كوني أصعد حافلته أول مرة، فشكرته وكاد أن يجيبني لولا أن قاطعه المعلم أبو إبراهيم بسؤاله: حسنا، ولكن متى النهاية؟ فهمت أنهما كانا يتحدثان معا عن موضوع ما، وقاطعتهما بإعطائه أجرة ركوبي، لذلك ترجلت من الحافلة وأنا أفكر بسبب السؤال هل يا ترى أنه يعني السؤال ذاته الذي سألته لنفسي هذا الصباح.

فيما بعد وبعد مرور أيام متتالية من دخولى الجامعة وانضمامى لأعضاء حافلة القرية سمعت أبو على يقول لأبى إبراهيم ستهون يا أبا إبراهيم فمن مثلك كثيرون جميعهم سألونى عن النهاية بعدما بدؤوا منذ زمن طويل ومع ذلك وصلوا إلى مرامهم ،وأنت الآن تتعجل التقاعد، هونها يا أبا إبراهيم ووكلها لربك" ما بقى قد اللى راح" فعلا لم يبق شيء كثير فمنذ ذلك الوقت حتى الآن وفي هذه اللحظة لم أشعر بمرور الوقت فهاهو أبو إبراهيم قد وصل لنهاية عمله وتقاعد وارتاح من سروة الصباح وأصبحت أنا في السنة الثانية واليوم اقتربت أم نزار من أبى على وسلمته الأجرة والتعب يكاد يقتلها سألها أبو على عن السبب فبررته بالعمل قال ابو على هانت تنهدت أم نزار بعد نفس عميق

- ياه... ومتى النهاية !؟
- بعد سنة يا أم نزار فلم يبق الكثير صبرت طيلة السنوات تلك اصبري هالسنة.

تحسبت أم نزار الله وترجلت من الحافلة، أصبحت في السنة الثالثة ولم أسلم بعد من غيظ طارق لى، فهاهو يغيظنى بتخرجه ووصوله لنهاية ارتياده للحافلة حاولت أن أشكى همى لأم نزار لكنها هى أيضا وصلت لنهاية ارتيادها للحافلة فأقتربت من أبى على كى أسأله أنا أيضا متى النهاية فأجابنى وأن أعلم الإجابة بعد مرور هذه السنة، والسنة القادمة قلت له ياه أنا آخر ركابك قال نعم فالشرطى محمود سينتهى من خدمته هذه السنة وكذلك شيرين ستستقيل من المستشفى ثم قال وأنت أولهم في الوقت نفسه لم أفهم

لذلك طلبت منه رشفة من التوضيح قال لى بحكمة الحكيم انظر خلفك فنظرت ولم أفهم ماذا يعنى أظهرت ذلك على وجهى بشكل ايحاءات قال ماذا تشاهد قلت باستغراب ركاب قال استثنى منهم القدامى محمود وشيرين فمن يبقى فشاهدت رائدا فقد خرج كتاب التوظيف في المدرسة وسيصبح معلما وكذلك أختى سعاد فقد دخلت الجامعة بعد كابوس الثانوية وهاهو محمد سيصبح شرطى وحامى آخر للوطن.

قال أبو على هؤلاء كلهم سيسألوننى في يوم متى نهاية أعمالهم وأشغالهم ولن تكون النهاية لارتيادهم حافلتى قبلك فكما انتهى أبو إبراهيم وأم نزار وطارق من أشغالهم ستنتهى من دراستك وكذلك سيكون حال من هم وراءك فلكل بداية نهاية ولكن أنا لم يفكر واحد منكم أن يسألنى في يوم متى النهاية متى سأرتاح من سروة الصباح ومن دهس الكوابح وضوضاء السيارات أم على فقط أن أجيب دوما الست بشرا مثلكم أريد أن ارتاح قليلا قبل موتى لقد كانت نهاياتهم عبارة عن نهاية لأعمالهم وواجباتهم هل يا ترى ستكون نهايتى أنا هى الموت .

لا أدري لم أخرج أبو على كل هذا الكلام اليوم وإن كان يئس من كثرة تكرار السؤال لماذا ينفض كل ما في قلبه من هموم جراء هذا السؤال على أنا بالذات هل لأعيش يومى في حزن وشفقة عليه أم لأكتب قصتي وأدونها عنه وأتركها بعنوان ما ضجر سماعه" النهاية ".

النهاية

تلبية خدمة...

عليه من الجرأة ما لغيره من صمت ساعة المنام،وفيه حيوية تكفي العمر قوتا لو صيرت لسبب ما خبزا.منظره عادي وربما أقل من المعيار الموضوع لجلالية المظهر، فوهه يعمل بإخلاص عجيب، يكاد لا يصمت فلولا مطبات الريق لتلاشت الكاد بغور روحه.

يده جاءت فوق يدي حينما عزمنا على تنفيذ مرامنا المشترك، ضغطت معه على مفتاح المصعد الكهربائي للصعود لأعلى طابق بالمشفى حيث قسم الجراحة، ضحك ضحكة استقر حصانها بعمق أذني، قال ستحل البركة على مفتاح المصعد فحسبته يقصد ملامسة يدي لمفتاح المصعد فاستعدت لأن أتصنع بالتواضع لكنه أفشل مخططي حينما أكد أن سبب البركة هو صورة المسجد المجاور للمصعد فضحك ضحكته بعدما كشف عن عقلي ورأى مخططي وهو يجر أذياله وراءه، دخلنا المصعد وبمجرد ملامسة قدمه لأرضية المصعد حتى بدأ الحديث بطلاقة مع الصاعدين وبثوان معدودة أنفق

عشرات الكلمات ممزوجة بضحكات لطفت الجو على زوار المشفى لخفتها وخنقتني لثقلها.

لم يكن سوى قصير القامة، نحيف البنية،أسمر البشرة،والمسافة بين منكبيه قصيرة،وبالنسبة لعينيه فهما صغيرتان غائرتان، هذه المواصفات جعلتني أشفق عليه من مفارقة الفتيات لأشباهه.

فتح المصعد بابه بمجرد وقوفه في الطابق المراد، خرجت أولهم فاندفعن ممرضات من المشفى نحوي وقفت متعجبا وبدأت أسترجع ملامح وسامتي،لكن مخططاتي هذه المرة باءت بالفشل، وسببها ذلك القبيح صاحب تلك المواصفات ليطرحني على أرض فشلي بيده مرتين. فاجتمعن حوله وبدأن يهنئنه بانتقاله إلى قسمه الجديد(قسم الجراحة). فعرفت على الفور أنه مراسل مطيع، وبالنسبة للفتيات فهو ملبي جيد لخدماتهن إن أردن قهوة من الخارج أو ما شابه، فضحك إحساس القهر بداخلي ومضيت إلى مرامي بعدما تخلصت من عناء التفكير بما كان.

أبي ما يزال يرقد في غرفته مستعدا لعملية جراحية سيخضع لها في الغد، لذلك هاتفت مديري بالعمل واعتذرت له عن دوام يوم سأقضيه مع أبي في المستشفى فتقبل طلبي مع إحضار ما يثبت ذلك.

نمت تلك الليلة مع والدي وبتنا نتسامر أطراف الحديث فوحدة المشفى قاتلة من دون أي مرض، لذلك حرصت أن أواسيه

طوال استيقاظه حتى كاد الحديث ينفد من فمي.فسكت كلانا لفترة وخشيت على والدي التفكير بإجراءات العملية إن بقي يقظا، لذلك حرصت على فتح موضوع جديد، حينئذ داهمني شبح ذلك المراسل فحقيقة لا أجد سببا مقنعا لمروره بمخيلتي لكني فتحت موضوعه لأبي وكيف أنه أرعبني بإقبال الفتيات عليه وهو بهيته تلك، وكم طمئنني لمجرد أنني عرفت أن الموضوع متعلق بتلبية خدمة ليس أكثر.

ضحك أبي ضحكة حكيم ونصحني بالابتعاد عن مظاهر الناس، لأنها ببساطة ليست الحكم، واقنعني بأنه حتى لو كان جالب القهوة للفتيات فهذا أبدا لا يمحق حقه بأنه صاحب شخصية مرموقة، جعلت الفتيات يثقن به ويتكلن عليه.حينئذ كشرت ملامح الصمت في وجهي وتظاهرت بالنعاس فنام أبي ولم أنم أنا.

الموضوع أكبر من قضية مراسل أو قضية إقبال فتيات الموضوع عندي قضية جماهيرية أسعى إليها وشخصية حالمة تسعى لجذب الأنظار أود أن أتقنها، والمراسل هذا مع مكانته تلك يسعى لما أسعى إليه أنا المعلم بين طلبتي وزملائي. قد يحسبني من أتكلم له بأن ازدراء الناس قد وقع على قلبي وأصابني في كبر ممقوت، لكني في حقيقة الأمر لست كذلك الحقيقة الغالبة أن أكثر أصحاب هذه المهن لا يتمتعون بقدر من الشخصيات الجذابة والمسيطرة بنفس بالوقت فمضى بي تفكيري لدرجة سبات غصت به في تلك الليلة.

نقت على صوت لم احبه، على صوت له في ذاكرتي غير البعيدة صدى يتأجج بأذني،ففتحت عيني عنوة ورأيت المراسل ذاته وهو يحمل طبق الطعام من غرفة أبي ووراءه ممرضتان. فانشرحت لذلك وعدت إلى نومي وأنا أتخيل منظر الممرضة وهي تشيح بسبابتها نحو الطبق ليحمله مكرها بين يديه، وليتألق بعد ذلك بضحكته المنفرة كيفما شاء!

داهم الفرح المشفى بكل أماكنه وتوزع أفراد عائلتي على الحضور يوزعون الحلوى بمناسبة سلامة والدي ونجاح عمليته. وحزم جميعهم مرفقاتهم وهموا بالخروج لولا تذكري موضوع الإثبات الذي طلبه المدير مني.

راجعت الأقسام المعنية، وكل منهم بدأ يحولني على الآخر فربما أنني قد أصبحت حملا لا يطاق. فتهت بممرات المشفى بعد جولات عدة على أقسام عديدة باءت بالخسران.فلمحني المراسل ذاته، وتأففت بصوت مرتفع .تأففت لأجله وليس لسبب الإثبات.

-أف أيوجد شيء يستحق أن تتأفف هكذا!.

-وما شأنك أنت؟ هل طلبت منك المساعدة.عندما أحتاج قهوة فسأحضرها بيدي.

ابتسم ابتسامة طفيفة وقصد هدفه،وبقيت مع نفسي وأنا أحاسبها فلم أكن في يوم لئيما هكذا، ولم أكن قليل أدب مع

الآخـرين والمفـروض أن أعلـم الأدب للأجيـال لا أن أطبـق غـيره. فتحسفت لما كان وودت الإعتذار، فضربت قدمي بالحـائط غيظـا لمـا أصابني من أمور جعلتي غاضـبا بـشكل ملفـت للانتبـاه حتـى مـرت بطريقي ممرضة سألتني عما يـؤرقني فأجبتهـا بخـلاف مـا أجبـت ذاك المراسل، والسبب ليس الجنس اللطيف إنما عدم تقبل لشخصية معينة وعلى العموم نصحتني بالذهاب إلى طبيب يدعى حمـزة يعمـل بقـسم الجراحة ذاتها فهو إنـسان متواضـع للجميـع يـساعد مـن لا يعرفـه، ومجرد ما طـرق بابـه فقـصدته علـى الفـور وطرقـت البـاب فكانـت المفاجأة التي لم تجعلني أتمالك نفسي غضبا حينما رأيت المراسل بعينـه يجلس مكان الطبيب وأمامه ممرضة تبادله الحديث كانت تعرف قـصة الإثبات عندما كانت في مكتب طبيب آخر دخلت عليه ورفض تلبيـة خدمتي.

قال لي

-تفضل.هل اقدر إن أساعدك

فأخذت نفسا عميقا وتمالكت غضبي ونسيت اعتذاري وقلـت بصوت هادئ لا يبشر بخير.

-قلتها لك آنفا ما شأنك، لماذا تصر أن تتدخل بالآخرين.

فتحت الممرضة فمها مذهولـة لمـا قلـت وسـألتني عـن سـبب عـصبيتي وتهجمـي وأنـا قاصـد هـذا الرجـل ولـيس هـو مـن

يقصدني.فقلت بصوت مرتفع هذه المرة أنني أقصد الطبيب حمزة ولا أقصده وفوق ذاك كله يسمح لنفسه أن يجلس مكان الآخرين.

فضحكت الممرضة على الفور مجرد ما سمعت كلماتي لمدة طويلة ولم يكد أن يقطع شيء وصال ضحكها لولا سؤالها لي عن مهنة هذا الشخص فقلت ببساطة وماذا سيكون يعني.ربما أنه مراسل أو ما شابه فزادت ضحكتها لدرجة أنني كدت أن أفقد عقلي من راسي وربما أنني سأفقده فعلا عندما بينت لي أن المراسل الذي أقصده هو الطبيب حمزة بعينه ليس غيره حتى لو رأيته في موقف يحمل الأطباق من عند مرضاه فهذه عادته الذي ارتضاها لنفسه وليست عمله.

ثمة مشاعر استولت على كياني وثمة أمور جعلتني أخرج راكضا من مكتبه طالبا النوم لأنس ما كان ليس أكثر.

لكنه أدركني في موقف ما وقال لي

- يا أخ إنك لن تقدر على الذهاب دون أن نلبي خدمتك ولن تقدر على الدوام غدا دون أن تثبت أنك كنت برفقة والدك فهذا ما أخبرتني به ممرضتي .على العموم هاك الإثبات والحمدلله على سلامة والدك.

حاجز قماشي

دق الواقع باب قلبه، ومكث مكانه واستقر فيه، حتى أضحى الحلم لا شيء والواقع كل شيء، بل هو الشيء الوحيد الذي يرنو تجاه رضا. هذا الطالب السوداني الذي طالما حلم بأن يتفوق بدراسته ويحصل على شهادة جامعية من أرقى الشهادات ويتخرج في أفضل الجامعات، ولقلة حيلته وحكم القضاء على انقباض يده، أصر على أن يجتهد في دروسه حتى تبعثه دولته إلى إحدى الدول الأوربية، ليدرس هناك على نفقة دولته فيزال كدره ويتحقق مرامه.

... ما هي إلا سنوات حتى نضج الحلم بعدما ترعرع بين دفتي كل كتاب من كتب رضا، فاستقر به الحال في إحدى أشهر الجامعات في فرنسا، لم يهتم رضا بالظروف الجوية التي تغيرت عليه فور خروجه من منبع أحلامه، بل أنه أخذ يجمع التدابير الوقائية ليق نفسه من برودة الثلج وشدة الأمطار في حال سقوطها، فاستأجر غرفة واحدة بالقرب من جامعته، فهو لن يجعل أي عائق يعوقه عن

الاستمرار بدراسته، ليعود إلى أهله طبيبا يعتد به، فهو لن ينسى أبدا تلك الدموع التي انسابت على وجنتي أمه المجعدتين المثقلتين بهموم المحيط والذات، فهي لا تكاد تصدق بأن الذي أرضعته سيكون في أحد الأيام طبيبا.

... أعطت رئاسة الجامعة مجموعة أدلة للطلبة القرويين الذين يقطنون في أماكن بعيدة عن مركز الجامعة، وكان كل دليل يحتوي على عناوين جميع الطلبة الذين يقربون الجامعة، وذلك للاستعانة بهم في حالة الظروف الطارئة، وبالطبع سيكون عنوان الغرفة الذي يقطنها رضا في هذا الدليل، فبرجاحة عقله وقوة الاحتياط لديه جعلته لا يمتلك مثل هذا الدليل، فهو ليس بحاجته، لكنه في الوقت نفسه مستعد لأن يفتح غرفته لأي جائر يستجير به فهذه عادة أبناء تلك الرقعة من ذلك الوطن.

... كان من المفترض أن تنهمر الثلوج في مثل هذا الوقت من السنة، لذلك عمت حالة الاضطراب بالجامعة، وتركز الطلبة الذين يسكنون في أماكن بعيدة عن الجامعة في وسطها ليتشاوروا أمرهم فيما بينهم بعدما تمكن الطلبة الذي يسكنون بالقرب من الجامعة من الوصول إلى بيوتهم، فقد قرر آولئك الطلبة بأن يتقاسموا العناوين المتواجدة في الدليل ليتوزعوا إليها.

لقد كان من بين أولئك الطلبة طالبة شقراء قد ذاب لون البحر في عينيها وازدهر الفل في خديها، وتوجهت إلى البيت الذي قررت اللجوء إليه، فمضت قدما إليه لتصل إلى غرفة رضا فطرقت الباب بطرقات أقرب لخربشة قطة، ليفتح رضا الباب وليدرك أيضا مبتغى الفتاة الفرنسية، فإذا كان من ضمن الطبيعي حسب تقاليد اليزابيث أن تبيت ليلتها عند رجل أسود يعشقها كل رائي، فإن العادات والتقاليد ذاتها التي تربى عليها رضا لن تسمح له بأن يكون السبب في هلاك فتاة تحت ركام الثلج وأن يجعلها تصارع البرودة في باحة ثلجية قاتلة.

... وبعد وقت قليل من الحديث القليل الذي ظل رضا حذرا من الشر الذي يخشاه كل أصيل قد انتشل من العروبة معاني الرجولة التي يتحكم فيها العقل على الشهوات، فتبرز تلك المعاني واضحة، والحرص تجلل في أسمى معانيه عندما أقبل وقت النوم حيث قام رضا بالتو ليفصل غرفته إلى قسمين بقطعة قماش كانت تغطي فراشه. ولكل منهما قسمه فتنام اللاجئة بقسمها وينام الرجل بقسمه. ابتسمت اليزابيث ابتسامة ممزوجة بخليط الدهشة والارتياح،

فعرفت أن مبادئه التي تعشعشت بداخله هي الدافع الذي جعله يفعل ذلك .

خرجت اليزابيث من ملجأها بعدما اضمحلت الثلوج، وتوجهت مسرعة حيث أهلها لتنقل لهما مالم تتوقعه في حياتها من عظيم صنع وتقديس لمبدأ راسخ بأعماق شخص ملتزم كرضا.

... بعد ذلك شاعت القصة وأصبحت حديثا يدار على الألسن مع دوران ساعة الزمان وخصوصا أن القصة انتهت بزواج بطليها.

النهاية

زفاف رفعة

لم يتبق على حفل الزفاف سوى بضع ساعات،والقرية بأسرها مشغولة بتحضير مراسم الزفاف،الرجال يحملون الخيام بشكل جماعي والصبيان يلحقونهم بالأوتاد،أما النسوة فقد انقسمن لعدة أقسام فمنهن اللواتي انشغلن بتحضير الطعام والشراب،ومنهن من انشغلن بالتنظيف والترتيب ونقل الأمتعة،أما الفتيات فقد انشغلن بتجهيز أنفسهن ضمن جو تنافسي من إضفاء أقصى لمسات الجمال لأنفسهن،فاليوم يوم غير طبيعي سوف يأتي الضيوف من مختلف القرى المجاورة ولا بد أن يكون من بينهم من يبحث عن عروس، وقد أرسل أمه أو أخته لهذا الغرض،فمقولة أن العروس إذا تجوزت فلا بد أن تجر وراءها غيرها ما زالت راسخة في ذهون القرويين وعلى أساسها يعملون.

ضمن هذا الجو الشقي،رفعت أم فيصل ثوبها عن ساقيها حتى بان سروالها الممزق،وركضت بسرعة الجن إلى بيتها تاركه الحشد بأشغاله، خبطت باب البيت الخشبي بقدمها،وجمعت أنفاسها

المتلاحقة بشهيق ضخم يشبه شهيق ثور هائج،فدخلت البيت حيث ابنتها رفعة وكانت تريد أن تنقض عليها كقط جائع لولا ما حالت بينهما الصلاة،فدارت أم فيصل خلف ابنتها عدة دورات شغلتها بالتأفف والاستغفار غير المقصود، إلى إن انتهت رفعة من صلاتها وبمجرد ما كادت تطوي "المصلوة" حتى أمسكتها أمها من تلابيب ثوبها،فنظرت أبنتها لعينيها الغائرتين بتعجب ولإزرقاق شرايين يديها الشديد مما أدخل شيئا من الرعب لقلبها،فحالة أمها هذه متعارف عليها لكنها هذه المرة قد زادت عن الحد وحينما ترى رفعة أمها بهذا الحال إذا لا بد أن يكون الموضوع فيه قصة زفاف لإحدى فتيات الحي ولا بد أن تكون هذه الفتاة أصغر سنا من رفعة لذلك تجهزت رفعة للموقف وأخذت نفسا عميقا فأخرجته بنفخة متزمتة مع كلمة

-خير

ردت عليها أمها بعدما شدت القبضة على ثوبها قائلة:

-ومن أين سيأتي الخير.جميع الفتيات هناك ومنهن أصغر منك وأنت هنا مشغولة بصلواتك التي لا تخلص. وتركت ثوب ابنتها واتجهت نحو صندوق كبير بلا غطاء يركن بزاوية الغرفة وباتت تنفض الملابس الموجودة فيه.

-أمي. أنت تعلمين أنني حريصة على صلاة الضحى حتى لو كانت سنة،فالشيطان لعين يحاول أن يجردنا من السنة ليستفرد

بالفرض بتلذذ.كما فعل معك ولم تعودي تبالين بسنن الصلوات. ثـم ما بك ثائرة هكذا. وعلى ماذا تبحثين؟...لا بـد أن تكـون الحكايـة حكاية زفاف.

-طبعا وكيف ستعرفين وأنـت مـشغولة بتـدينك الزائد،الـذي منع النسوة من رؤيتك حتى أصـبحت هكـذا تقتربـين مـن الـثلاثين وأنت ما تزالين في وجهي لا عريس ولا بطيخ.

-قلت لك مرارا إن هذا نصيب وقدرنا مـن عنـد الله والـذي آت من عندالله خير.

-أكيد لكن لا يجوز أن تختبئـي بالبيـت كـالفئران وتقـولين إن الخير سيأتي.

وأخرجت لها فستانا ملونا وألقته على ابنتها

-هيا البسيه.

-أمي ما هذا انت تعلمين أنـي لا ألـبس ملابـس كهـذه إنهـا عرضة للفتنة.

-فتنة.لا حول ولا قوة إلا بـالله وكيـف سـتكون فتنـة وأنـت ستلبسينه أمام النساء فقط.

-أمام النسوة أفهـم هـذا. لكـن كيـف سأصـل بـه إلى موقـع الزفاف دون أن أمشي بالحي.

-يا حبيبتي الرجال مشغولون بأعمالهم.لا يوجد شخص فاض كي يشغل تفكيره برؤيتك.

-أمي لا تستهزئي بي.لن أذهب ثم إني أعلم جيدا تلك المجالس أنها مليئة بالغيبة والنميمة والهمز واللمز.

-يا لطيف يا لطيف.يارب صبرني.تعلمين أقسم أنك ستذهبين وإن لم تذهبي سأضربك أمام كل القرية ففضيحتنا صارت على كل لسان من وراء عقدتك.

هذا المشهد يتكرر كل ما يحصل حفل زفاف لإحدى فتيات الحي، فرفعة تناهز الثلاثين ولم تتزوج بعد،فقد تقدم لخطبتها شخص واحد وهو علي وقد رفضته لأنه لا يصلي ولا يلتزم بتعاليم الدين،ومن ذلك اليوم باتت العلاقة متوترة ما بين أم فيصل وأم علي.وكل واحدة منهن تقف للثانية على الوحدة وتستعد لأن تكيد الأخرى بأي طريقة،ولا بد أن تكون أم علي قد جهزت ابنتها هند التي تقترب من السابعة عشر بشتى أنواع الزينة،ولا بد أن تكون قد لطخت وجهها بألوان وأصباغ جذابة كي تجمع العيون حولها.ولا بد أنها ستسأل أم فيصل عن ابنتها فهي كالمعتاد لن تأتي للحفلات خشية الوقوع بالحرام.لذلك ستكون حفلة سارة التي ستتزوج اليوم بمثابة حفلة انتصار لأم علي على أم فيصل.وأم فيصل بدورها ستكسر الروتين المعتاد ولن تسمح لأم علي بأن تكيدها وتنتصر

عليها هذه المرة،لذلك أصرت على ذهاب ابنتها لدرجة أن الأصوات تعالت مع دخول فيصل البيت،فقد جاء ليبدل ملابسه بطقم العيد الماضي فالصبيان قد عادوا إلى بيوتهم بعد تثبيتهم للأوتاد. وقد حاول أن يهدئ من الوضع الصائر بالبيت لكنه لم يفلح فركض مسرعا الى موقع الزفاف كي ينادي أباه خصوصا بعدما انهالت أم فيصل على ابنتها بالضرب.

-ابي. تعال بسرعة أمي تكاد أن تميت رفعة من الضرب

هب أبو فيصل واقفا على كلتا قدميه كمسمار متين،آمرا ابنه بأن يسبقه للبيت فاعتذر من الرجال الجالسين واستأذن منهم الذهاب. فسمحوا له مع إشارات تعاطف مجاملة فقد قال له أبو علي.

- تهون يا أبا فيصل فهذه حالة أبي العيال

هز أبو فيصل رأسه مبتسما ثم ركض للبيت، وترك الرجال يتباحثون من ورائه أمر رفعه، فأبو نصار يدافع عن هذه المسكينة التي يئست من حكاية الأزواج والتزمت البيت متفرغة لدينها' وأبو جاسم يلومها على تزمتها الزائد ومتطلباتها الصعبة أما أبو علي فيحمد الله على عدم موافقتها على ابنه فهو لا تنقصه العقد ولا بد أن يكون الله يحب ابنه على عدم اتمام هذا الزواج فكنته عبير خدومة ومؤدبة ويكفي أنها بعد بضع أيام ستنجب الحفيد الأول.

دخل أبو فيصل البيت وبمجرد دخوله عم الصمت المكان للحظات فالدموع لم تصمت وأصرت على الخروج من الاثنتين،وأبو فيصل واقفا حائرا من هذا المشهد الذي أمامه،فلم يكن يعلم أن قصة زواج رفعة ستسبب له هذه الآلام،ثم أن سنه لا يسمح له بأن يتحمل مثل هذه المشاكل التي تثور مع بدء كل زفاف لإحدى فتيات القرية. أخذ نفسا عيقا ذو شخير خروف يذبح قائلا:

-إلى متى يا أم فيصل هاه إلى متى انظري حولك الجيران بدأوا يتشمتون والحديث بات عن عائلتنا.

-والله سأجن والله سأجن انظر سارة ستتزوج اليوم وهي تصغر ابنتنا بعشر سنين.

-ومالنا ومال الناس هل نقف بأنصاف الطرقات لنصطاد العرسان ولحولهم على بيتنا ليتزوجوا ابنتنا عنوة.ماذا أصابك يا أم فيصل.هذا وانت العاقلة.

قالت وسط نشيج بكاء شاركت فيه ابنتها وهي تخفي رأسها بحجرها بزاوية البيت.

-يا أبا فيصل سارة تذهب وتخرج لا تفوت أي حفلة إلا وتحضرها لسانها حر طلق هذا ما ساعدها على الزواج،ليس مثل ابنتنا لو كانت من الملائكة لما التزمت العبادة بهذا الشكل.لكنها ستذهب ستذهب لقد أقسمت ليس لي حيلة بأن أصوم ثلاثة أيام.

-وحدي الله أيتها الحكيمة هـذه أقـدار،ورجاء يكفـي مماطلـة بهذا الموضوع لقد ضجرنا والله ضجرنا.

واقترب من ابنته ومسح على رأسها بيديه الخشنتين قائلا وهو يواسيها:

-لديك يا حبيبة أبيك شعرا حريريا كـسواد الليل،أريـد أمـك أن تباهي به نسوة الحي،فأمك لا تقصد ايـذاءك وأنـت تعلمـين أنهـا تريد مصلحتك ليس إلا.اذهبي هذه المرة فحسب،لا لـشيء فقـط مـن اجل يمين أمك وبعدها افعلي ما يحلو لك.

رفعت رفعة رأسها وكفكفت دموعها وهي تقول بصوت بـرئ سـأذهب لكـني لـن أضـع الوانـا علـى وجهـي وسـأرتدي حجـابي وسألتزم به.

ووافق أبوها على ذلك وبمجرد الموافقة حتى زغردت أم فيـصل بعلو صوتها ليقاطعها فيصل قائلا:

-أصلا لا حاجة لأن تـضعي الوانـا فحمـرة وجهـك طبيعيـة والبركة بأمي التي صنعتها.

ضحك الأب وخجلت الأم ورفعة لحقت أخوها وهـي تلـوح بحذائها تحاول إصابته.

أقبل الصبية مـن بعيـد يهرولـون ويـصفقون بأيـديهم مـؤذنين باقتراب وصـول الزفة،فقـد جـاء أهـل العـريس وسـط حـشد كـبير

ليأخذوا سارة بعد ساعتين من الاحتفال وتناول الطعام إكراما لأهل العريس،فالصبيان لم يتناولوا سوى القليل من الطعام في بيوتهم وذلك ليفسحوا المجال لبطونهم بأن تختزن أكبر قدر من اللحم الذي سيلتهموه بعد قليل،أما الفتيات فلسن مضطرات بأن يفسدن طلاء وجوههن جراء حركات المضغ لمجرد تناول اللحم،ثم أنهن يجب أن يتظاهرن بمظهر مؤدب أثناء الطعام فربما واحدة من أمهات العرسان تراقب إحداهن،فالمجال للأكل مفتوح أمام الأمهات فليشمرن عن سواعدهن.

وسط الزحام المكتظ تمكنت رفعة وأمها من اختراق الزحام والوصول لمنتصف القاعة حينئذ جلست رفعة بجانب الفتيات.واندمجت الأم مع باقي النسوة بالرقص الغبي والغناء الشعبي.

مالت عبير برأسها نحو رفعة تهمس بأذنها باستهزاء

-وكيف رضا الحجة علينا.

فضحكت هند على سؤال السابقة فقالت رفعة على استحياء

-المهم رضا الله وليس رضى العبد

استمرت الشقية هند بالضحك وأردفتها بجملة حالها استهزائي

-والنعم بالله.لكني يا حبيتي أتوقع انك نسيت مسبحتك بالبيت فضحكن جميع الفتيات ما جعل رفعة تصمت وتهب واقفة وهي تنوي العودة إلى البيت فمنعتها أم علي حينما سلمت عليها وطلبت من الفتيات القيام بالرقص وأخذت بيد ابنتها هند لتراقصها امام أم فيصل نكاية بها لكن هذه الفتاة الشقية أصرت بأن تستهزء برفعة مستغلة صمتها قائلة

-لكن يجب أن استأذن الشيخة رفعة فربما يكون الرقص حراما

مما جعل رفعة تعود بالفعل إلى بيتها مسرعة تشكي همها لخالقها، لكنها ربما لم تنتظر باستجابة ربها بإزالة همها وتخليصها من السن قريتها ودوامة أمها، فقررت على حين غفلة الهرب من تلك الألسن وتفويض أمرها لله.

... وما زالت الألسن تتقلب بأفواه أهل القرية حول رفعة، فبعدما كان محور حديثهم حول عنوستها فلقد أصبح حديثهم الحالي لا يحلو إلا بالسبب الذي جعل رفعة تخرج من القرية هاربة، فتعددت الآراء في ذلك فقد يكون أصابها مس،أو وقعت ببئر مجاورة، لكنهم في نهاية المطاف أجمعوا على هروبها مع عشيق ينتظرها خارج القرية فقد زعموا أن هذا سبب عدم زواجها، فخشيت أن يفتضح أمرها فولت هاربة مع عشيقها، لذا ستبقى سيرة

رفعة غير المحمودة على كل لسان وستبقى هـذه السيرة تزلـزل كيـان والدها وسمعته ولن يسكن الحال إلا بما هو معتاد عند أهل القرية في مثل هذه الحالات.

ما هي إلا أيام حتى شوهد صبيان القرية وهـم يزفـون رفعـة لكن هذه الزفة لم تكن كزفة سارة ولا كتلك الزفة التي طالما حلمـت والدة رفعة بأن تشهدها إنما كان زفاف رفعة زفاف من نوع آخر. لقد كان يجرها أبوها جثة هامدة مذبوحة بسكين الشرف والصبية خلفهـا يصفقون ويتصايحون.

... بعد زفاف رفعة بأيام عم الهدوء القرية، واستقرت الألسن داخل الأفواه بلا حراك.

النهاية

شرايين قلبي تأبى

هناك، عبر ذلك الوادي المتواري خلف الأطلال، كنت اصطنع الحكايات مع نفسي، وما زلت أضرب في الخيال أصنافا متنوعة، وتسرح بي حتى أصير ملك الملوك، أو بطلا مغوارا يصنع المستحيل في تلك الحكايات، فمهما تعددت الأقاويل عن ذلك المكان، فلن أبرحه حتى لو ازداد الخوف المتمشعش في قلوب العامة تجاه الوادي، ولن ينقص هذا شيئا من مقدار حب الاستمتاع بمنظره في قلبي، هذا الوله بالاستمتاع كان يقودني مع العصر إلى ذلك الوادي، فأمتع عيني من منظر الحداره من سقف الجبل، والخضرة ما زالت تتزاحم على شفاهه، وفي قعره ما زالت الرمال المطحونة تكسوه فأغرق فيه حتى نصفي، وأمل من شدة الضحك جراء دغدغة الرمال وحينما تكاد الشمس تقفل على المغيب أجر أذيالي ورائي وأهرع إلى البيت. فلست مستعدا أن أقضي على حياتي في هذا الوادي، حتى لو وددت المكوث طيلة الوقت، لكن يبقى العصر

لي والغروب للضباع، فكم أحسدها، كم أحسد هذه الضباع فهي ترى مالا أراه فإنها ترى أبهى صور الحياة حين الغروب.

هبات نسيم الوادي لفحت وجهي وأيقظتني من قيلولة ثقيلة مصحوبة بصداع، وتعالت صيحات الديوك تؤذن بالعصر، هممت لبندقيتي وانطلقت حيث روحي، فهي ما زالت تمكث هناك لا تأبى العودة، فالضباع لا تراها عند الغروب فتناديني وقت العصر فأهرول إليها لأصيب شيئا من سعادتي بجمال الطبيعة.

تمشيت وتأملت وصرخت وانطلقت صرخاتي حتى العنان فتراجع الصدى إلى أذني بعد مدة ليوقظني من سعادة غامرة أقضيها وسط الطبيعة، فزادت الصرخات من صداعي، فاستلقيت إلى ظل شجرة وغصت في نوم عميق من دون أن أشعر هكذا حتى استيقظت على هبات نسيم سوداء باردة، فقمت فزعا، فقد أطبق الليل وحان موعد جديد مع الضباع، أمسكت بندقيتي بحرص شديد وشددت القبضة حتى بانت زرقة ساعدي وانطلقت متأرجحا عن الجبل حتى مررت بذاك الوادي وأنفاسي لا تكاد تلاحق بعضها، وحينما صرت في منتصف الوادي بين الرمال الحريرية علقت آمالي بحبال رحمة السماء، ورجوت الله أن يبطئ من مجيء الضباع والا يكون نومي وتأخري عن العودة سبب هلاكي. لقد عشت لحظات الخوف واحتضنتني جدرانه بقوة وما كان من شيء أن يخترقها سوى

وصولي لبيتي آمنـا لكـن سمـاعي لأنـين بقربـي قـد اجتـاز جـدران الخوف وجعلني أتفقد المكان من حـولي لعلـي أجـد مـصدر الأنـين، وإن لم تخني أذني فهـو صـوت إمـرأة شـاحب يـستغيث وأخالـه هنـا بقربي لكن أين؟ آه إنه هنا. إنها امـرأة عجـوز تغـوص في الرمـال لا يبين سوى رأسها وقليل من عنقها، أخرجتها من بين الرمال بسهولة، وإذ بها عاجزة لا تقوى على الحركة فحركتها مشلولة تمامـا وفهمـت بسرعة أنها لم تأت هنا وحدها حتى لو كانت نفسها عاشـقة للطبيعـة كنفسي فهي لا تقوى على ذلـك، ربمـا أحـد مـا وضـعها هنـا لكـن لماذا؟! وكيـف؟! فهذا المكان بمثابـة قـبر يـضيق عليهـا بتـأن ويجعلـها وجبة لينة للوحوش.

-ما الذي أتى بك هنا يا أمي؟

سألتها سؤالي وفي بالي أسئلة كثيرة أريد أن أسألها إياها حتـى قبـل أن تجيـب. فحملتهـا علـى ظهـري قبـل أن تـتلفظ بـأي إجابـة وأبعدتها ونفسي عن مصدر الموت، وقـد صـنعت مـن يـديها عقـدا لحميا متينا من يدين مجعـدتين تطوقـان رقـبتي وتـشدان علـى رؤوس أصابعها المتشابكة على عنقي من الأمام حتـى كـدت أن لا أتـنفس، فهمت منها وأنا أحملها على ظهري بأنها أم أمضت حياتهـا في رعايـة ابنها الوحيد وحتى بعـد زواجـه بقيـت مـساندة لـه في أمـور كـثيرة، أهمها قلبها الذي ينادي بالرحمة لابنها طيلة حياته، هكذا حتى أكـل

الزمان قدميها ويديها وشل حركتها، فأصبحت حملا ثقيلا على زوجة ابنها، فهذه العجوز لا تقوى على فعل أي شيء لا تقوى حتى على تنظيف نفسها، والزوجة كما تزعم ليست على استعداد بأن تخدم عجوزا لا تمدها بصلة سوى إنها أم، أم لهذا الزوج العاق، فاستقر الوسواس في رأس الزوجة وبقي يوسوس لها حتى بدأت تتحدث نيابة عن الشيطان بذاته فبدأت عملية اقناع زوجها وبث السموم في أذنه كي يتخلص من المشلولة، فخر قلبه الضعيف لسموم زوجته، فطاوعته يداه لأن يحمل أمه حتى هذا الوادي، وطاوعه ضميره المصطنع على رميها لتدفن حية بين الرمال أو تأكلها الوحوش، وبالتالي لن يتحمل الابن أي مسؤولية تجاه والدته، ولن تفرض عليه أي تبعيات تمسه من وراء أمه، فيعيش الحياة الهانئة التي يزعم هو وزوجته.

توقف قلبي متجمدا في ثلاجة جوفي بعدما سمعت كلمات العجوز وهي تمزجه مع عصارة قهر وألم، وانهمرت عيناها بالبكاء فور انتهائها من الحديث، حسبتها بالبداية تبكي على حالها ولما جرى بها فهي تتلعثم بلعثمات لا تدل على أنها تبكي على ذلك، فاستقر الاستغراب عند أعتاب قلبي وسألتها عن سبب بكائها والدهشة تتمالكني، فقلت لها بحرقة:

-علام تبكين يا أمي أما زلت ترجين نفعا من مثل هذا الابن؟!

فقالت لي بعدما شددت القبضة على عنقي :

-لم تكن دموعي يا ولدي خوفا على حالي، فلم يعد لعمري بقية ولن اتمنى لأن أعش أكثر مما عشت، ولكن ابني قد جاء بي إلى هنا قبل المغيب بقليل وربما يكون الليل قد أطبق عليه في هذا الوادي دون أن يحسن الرجوع وأخاف أن تصادفه الوحوش وتنهشه قبل أن يدرك الرجوع لبيتنا!

قالت كلماتها تلك وأنا لا أدري بما تفيض به احاسيسي أهي مشاعر شفقة أم سخط أم تعجب، لكن خلاصة الأمر أن قلبي بدأ يرتجف بشدة بين أحضان صدري، وتعجبت كل العجب وكدت أن أصرخ في عمق ذاتي، لكنها خففت من عناء كل ذلك حينما بدأت يداها تتراخى حول عنقي وبدأت تفك الشباك التي صنعته بين أصابعها، فسقطت عن ظهري ببطء وهي تقول:

-اعلم يا بني ماذا تريد أن تقول واعلم ما الذي تتمناه لابني من سخط في هذه اللحظات؛ لكن لا تنس يا بني أنني أم ولا أقدر أن أتمنى لابني ما تتمناه له من موت وسخط، فحتى لو كان عقلي يتمنى ذلك فإن شرايين قلبي تأبى!

النهاية

صالحيني أيتها الذات

-إيمان

-ماذا؟

-ما بك؟ لم أنت كئيبة؟!

-... وهل مر يوم دون أن تأكل الكآبة شيء من قلبي؟!

-من له قلب مثلك لايكتئب،من مثلك لا يحزن،أنت خلقت للسعادة،للسعادة فحسب!

-أنت مسكين.

-ربما، لكني أعرف ماذا أريد من الدنيا أما أنت فلا.

-انما أعرف، وليتني أجهل، فلو كنت أجهل ما أعرف لما صرت الى هذه الحال.

-ماذا تريدين؟

-أن تصالحني الذات.

... وتركتها بعد جملتها تلك، وأنا لا أعي ما تريد أختي، رغم مصارحتها لي بذلك، صحيح أني لست مثلها فأنا غبي وهي الأذكى، لكن هذا المرام صعب فهمه حتى على الأذكياء فماذا تقصد بالذات؟اوماذا تريد منها؟ وكيف لها بأن تصالحها.آه يا إيمان لو أعرف ماذا تريدين بالضبط،لربما أصبت شيئا من مساعدتك.

-أريد أن أكون

-تكونين ماذا؟ وكيف تكونين؟ هل تنقصك الكينونة؟

-عندما تكبر تعرف.

... أين أنت أيها الكبر، هيا تعال. في هذه اللحظة بالذات تمنيت أن أكبر، أن يخطف قطار العمر جزءا من عمري ليعطيني الحق في الكبر، لا يغرب عن بالي أبدا ما أصاب إيمان في طفولتها، فمنذها كانت تحلم بأن تدرس وتتعلم، وحينما لم يسمح لها أبي بذلك تنهدت،وبكت،وصرخت،لكنها لم تلبث قليلا حتى استسلمت للواقع،وحينما تقدم لها في شبابها من خفق قلبها له.لم يرض أبوها بذلك.هذا لمستواه وطبقته العاديين، لكن كل هذا لا يؤثر عليها فأبي موفر لها كل ما ترغب به أي فتاة،وجعلها في رغد من العيش،ونحن نحبها، كلنا نحبها، هي انثانا الوحيدة.آه يا إيمان مع كل هذا وتبقين كئيبة.

-هذا لا يؤثر عليك.

-إذن لما تتعلم أنت.إن لم يكن للتعليم تأثير على الإنسان فلم تتعلم ولم أتعلم أنا رغم أني اسبقك في العمر.

-لأن أبي يريد هكذا.

-أراده لك.لك فحسب

-هذا خوفا من السمعة السيئة وفي الوقت نفسه علمني كي يكسب سمعة طيبة ويفخر بي.

-ولم يعلمني خوفا من الفضيحة.وأي فضيحة هذه التي ستجلب من وراء التعليم.غير أنها مقيدة بأغلال التقاليد العمياء.

وحينما أردت أن أخلص نفسي بالزواج رفض وبقيت أسيرة هذا القصر معدودة الخطوات بالدخول والخروج.

-إنها العادات.إنها التقاليد.

-نعم،وظلمتني.

-أي ظلم هذا وأنت هنا كل فتاة تحلم بأن تكون ابنة أبيك سيد قومه،كبير التجار،ذو مكانة مرموقة.أي شأن هذا الذي أنت فيه؟اكل فتاة تحلم بهذا!

-حلم زائف.

كثير ما كانت إيمان تنظر إلى الحرية بعين قوية.وكأنها مسلوبة منها،أو أنها سلبت وانتهى الأمر، لا أدري.لكن كل الذي أعلمه أن أختي إيمان بدأت تفقد أجزاء من عقلها لدرجة انها باتت تصارع رغبة عارمة في جوفها بأن تخلع هذا الغطاء الذي يخيم فوق رأسها، بأن تجعل الثياب تشرب من جسدها كما يشرب أبي من حريتها كما فهمت، بأن ترتدي ما هو شفاف وملتصق، وتنطلق بلباسها هذا بين زحام العادات والتقاليد وكأنها تقول انا هنا أنظروا لي! أختي إيمان بدأت تبالغ في مفهوم الحرية وتمزجه ضمن مفاهيم قد تكون متناقضة من حيث المبدأ،آه يا إيمان عودي كما كنت،أحيانا كثيرة أحلم بأن أرى إبتسامتها السابقة، وضحكاتها البريئة، ورقصاتها الغبية، أشتاق لأن تحملني في حجرها.وتقول لي الحكايات.مثل أيام زمان- الله على أيام زمان- هذه اللحظات التي بت أحلم فيها تحققت للحيظات في تلك الليلة عندما أقبل العريس لكنها سرعان ما تلاشت بمجرد سماع كلمة (لا) تثور من بركان أبي،ذلك البركان الذي يحتضنه فمه،والذي يثور بين فينة وأخرى وكثير ما كان ثورانه

حول سمعة ومستوى العائلة وتطبيق ما كان من أيام زمان، ليس الزمان الذي حلمت بعودته منذ لحظات، إنما الزمان الذي سبق زماني،وزمان إيمان حتى الزمان الذي سبق أبي بعينه، ايمان الآن كئيبة وربما يكون مصدر الكآبة من العريس ليس العريس السابق الذكر،إنما العريس الذي سيجلبه أبي،العريس الذي من نفس الطبقة-نسخة أبي- فتعيش إيمان المتزوجة كما تعيش إيمان العزباء.

وطرق بابي...

-من بالباب؟

-أنا إيمان.

-ادخلي.

-يا للفرحة جلبت لك بشرى!

-اسرعي.قولي ما هي؟!

-صالحتني ذاتي!

-وكيف هذا؟

-مات أبي!

النهاية

عامل واحد فقط

التفت يمنة ويسرة في ذلك الوقف الفسيح الملئ بالسيارة لعلي أجد ذلك العامل الذي كلفني أبي بإحضاره للنكش حول الأشجار الموجودة في المنزل العتيق، كانت المهمة بالنسبة لي صعبة. خصوصا في هذا اليوم وفي هذا الوقت المتأخر، فاليوم هو الخميس والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة صباحا، فعادة أجد كثيرا من العمال المصطفين على حواف ذلك الموقف، لانتظار شخص ما ليكون السبب في رزقهم بعد الله عز وجل، هذا بالنسبة للأيام العادية غير يوم الخميس، لكن بعد لحظة من التفكير والانتظار لمحت عيناي عاملين جالسين على الرصيف المحاذي لذلك الشارع الكبير، أحدهما شاب في أول مطلعه والآخر رجل كهل قد تجاوز الخمسين تبدو عليه ملامح الكبر والهرم فكلاهما متناقضان في الحجم والشكل، فالنشاط واعتدال القامة وسواد الشعر كان من نصيب ذلك الشاب، ولكن الرجل الثاني قد نال كل أنواع التعب فكانت علامات الألم وضربات الشمس الحارقة بادية على وجهه ناهيك عن ظهره المنحني

وعظامه الهشة وشعره الأبيض، ولكن كلاهما كانا مشتركين في الضيم والحسرة والفقر، يرجوان من الله أن يرزقهما بشخص يحتاج إلى العمل، اقتربت منهما قليلا خطوة تلو خطوة، وأنا انظر إلى عينيهما وهما يحملقان بي، فربما قد عرفا أنني بحاجة إلى عامل أو أكثر، لقد مسني شعور خفي من تلك النظرات، لا أدري ما حقيقة هذا الشعور أهو الخوف من تلك انظرات أم الشفقة عليهما، ولكن بعد برهة من التفكير وجدت أن الثانية هي الأقرب لوجداني، فنظرات الشكوى والحزن كانت تملأ عينيهما ولكن بعد ذلك بقليل تحول شعوري بالحزن عليهما إلى حيرة واضطراب فما إن وصلتهما حتى وقفا في وجهي في لمح البصر وكأنني ضابط يقف أمام جنوده أو معلم يدخل على طلبته.

-نحن في خدمتك يا سيدي؟

قالاها معا وصوت واحد، لم أدر بما أجبتهما، فعلامات الذهول ما زالت بادية على وجهي وازددت عجبا وذهولا بعد أن سمعت منهما كلمة سيدي، لا أدري بماذا شعرت وكأنة صعقة رعد أصابتني لتوقفني متجمدا أمامهما لا أقوى على الحركة محتارا فماذا أقول أو اتكلم؟ إذن من الطبيعي أن تصعقني صعقة ثانية لتوقضني مما أن فيه أو حتى كلمة من أحدهما ولكن أي شيء من هذا لم يحدث، فالذي أيقضني هو اختلافهما على من سيذهب معي إن

أردت عاملا واحد فقط. بالفعل كنت أحتاج إلى عامل واحد فقط، فما الحل؟ وخصوصا أنهما تأكدا أنني اريد عاملا واحدا.

-أنا رجل هرم وسيشفق علي ويأخذني.

-وأنا رجل نشيط وكلي حيوية، إذن سيأخذني أنا فلا مكان للشفقة عند أصحاب العمل.

كل منهما قال جملته، ولكن بقيت أنا لأقول جملتي لاختيار احدهما، أخذت فكر بالرجل الهرم فهو يحتاج إلى العمل قبل غيره، وإلا لم يضطر إلى الوقوف تحت أشعة الشمس الساطعة، فهو لا يحتمل ولكن ذلك الشاب قادر على البقاء لساعات طويلة.

فجأة تغير رأيي عندما سمعت ذلك الشاب يقول:

-لماذا تتصرف بأنانية، اكتف بما أعطاك الله، فأنت تعمل منذ زمن وجمعت ما يكفيك ويكفي أسرتك من المال، أما أنا ففي أول أيام عملي، ولم أجن ذلك المال للإنفاق على اخوتي وتأمين مستقبلهم، ذهلت للمرة الثانية فربما يكون كلام ذلك الشاب صحيحا، ربما يحتاج إلى المال أكثر من ذلك الهرم فإن كان كلامه صحيحا سيكون ذلك العجوز جشعا يحب جمع المال على حساب صحته وهو لا يحتاجه.

قطع تفكيري مرة أخرى، ولكن هذه المرة من الرجل الكهل حينما قال:

-هذا غير صحيح فأنا لم أعمل إلا منذ مدة قصيرة مثلك تماما فقد كنت عاملا على جرار أحرث به أراضي الناس مقابل أجر زهيد، إلى أن أخذه صاحبه مني ولم يبق لي حيلة غير الله، ثم هذا العمل، فأنا الأحق به وخاصة لأنني كهل، فأنت أمامك المتسع من الوقت.

دقت نبضت قلبي بعنف ودمعت عيناي بلطف واحمر وجهي بشدة، فكلاهما موقفه محزن للغاية، فالأول ينتظر عملا ليعيل زوجته وأولاده بعدما طرد من عمله، فكلاهما يحتاجان لذات الشيء، وكلاهما لديه أسبابه التي تجعله يخرج منذ الفجر الباكر، وينتظر تحت أشعة الشمس الحارقة، حتى يظفر بعمل، وإذا ظفر به لا يرحم من أوامر صاحب العمل ومتطلباته، هذا إن حظي بكأس عصير بارد، أو حتى بماء وفكرت بأخذ الاثنين معا لكن العمل لا يحتاج إلا لشخص واحد، ولن أنجو من تأنيب أبي.

قطع تفكيري سؤالهما معا وبصوت واحد آه... من ستختار منا؟

ولم يكادا ينهيان السؤال حتى ناداني أبي بصوت غليظ

-ماذا يا بني؟ هل أحضرت عاملا؟

-ليس بعد يا أبي.

قلتها بتردد والخوف يسيطر على قلبي فقال بعد ذلك:

آه إذا قد أدركتك في الوقت المناسب، الخوف، الحزن، الألم، الشفقة، نظرات العاملين، الحقد!

كل هذه المشاعر اجتمعت مرة واحدة لتستعمر جسدي وجسدي هذه العاملين.

ليثبتها أبي بقوله:

لقد وجدت من يستأجر المنزل العتيق ويهتم بحديقته فهيا إلى السوق قبل العودة إلى البيت يا بني.

تراجعت بخطواتي وعيناي ما زالتا تنظران بوجهيهما العابسين اللذين أصبحا مليئين بالحزن من جهة والكره من جهة أخرى.

فكلما أرى هذه الاتهامات في وجهيهما يكاد قلبي يحترق نارا أو ربما احترق.

حاولت أن أذهب إليهما لأرد تلك الاتهامات عني فالذنب ليس ذنبي انما ذنب تلك الحياة الغامضة وتلك الظروف التي تركت أناسا يصيرون إلى تلك الحال في حين إن هناك أناسا يرتعون مرحا وسعادة لدرجة أن العيون تلاحقهم للمساعدة فإن لم يكن فلإصابتهم بالحسد.

وما كدت أقترب منهما حتى كاد قلبي يخرج من فمي لشدة شعوري بالخوف عندما سمعت صوت أبي الغليظ ينادي بعنف: تعال إلى هنا.

مشيت معه بصعوبة لأن قدمي كانتا ترتجفان من شدة شعوري بالذنب لما حصل فتسوق أبي وعاد إلى الموقف لنركب ونعود إلى البيت، وبينما نحن في ذات المكان الذي وجدت فيه العاملين، رأيت رجلا ذا شخصية باهرة يقف معهما، فتسللت إلى موقعهما عندما لاحظت أبي مشغولا مع هاتفه، لأسمع حوار ذلك الرجل مع العاملين.

-إنني أحتاج إلى ثلاثة أشخاص للعمل.

-ولكننا اثنان فقط.

فكر الرجل قليلا ثم نطق فجأة.

-حسنا لا يوجد مشكلة سآخذكما معي وأجرة الثالث سأقسمها بينكما ان أتقنتما عملكما فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه.

امتلأ وجهي بشاشة وفرحا لفرحة هذين العاملين وقد ظهرت بسمتان طفيفتان على وجهيهما العابسين.

فعلى الرغم من وجود عوائق تمنعنا من التقدم إلا أن في هذه الحياة الغامضة خيرا يكفي لإسعاد مثل هؤلاء الناس وسيبقى بإذن الله...

النهاية

فنجان قهوة

أصبح الجميعُ في وجوم فالشمسُ أقفلت على المغيب ولم يطرأ على الموضوع أي تغيير، فمن لحظةِ الجلوس حتى هذا الوقت، لم يحصل المراد، مع العلم إنه يجب أن يكون في أول اللحظات .

صعدتْ الشمس من خلف الأفق، مشرقةً من جديد، مؤذنة برفقة صيحات الديوكْ بميلاد يومٍ جديد، ناقلاً إلينا ما كَأن أهل الحي في انتظاره من شهور، حيث رجوع ابن سيد الحي عظيم وجهاء القرية وأكبر مالك لأراضيها، لم نر منه سوى كل خير، واليومُ يومُ الفرحةِ سنخطب لابنِ وجيهَنا .

توقف القطار، وانهَّل عليه سكان القرية يتملصون بأعينهم وسط الزحمة، منتظرين من طالت غيبته، طبيب الحي ابن الغالي،وهي خطواتٌ قليلةٍ حتى كأن بيننا الابن الحبيب طبيبنا، وأصيب طبيبنا بعد ذلك بالزكام من شدة التقبيل، فمن سيعالج الطبيب؟

وانطلق القطار،والأب مودعاً ابنه بدموع الخوف والتأمل، والابن بين أمرين أحلاهما مُرّ، فهو عاشق فاطمة إحدى بنات الحّي،

وعاشق للطب والعلم فإن اختار احدهما، كـان الأحـب بـلا شـك، وسيكون مراً لعـدم إحتيـازه علـى الآخـر، وخـصوصاً أن فاطمـة لا تستطع السفر معه في حين تزوج، وهو لن يقدر علـى تركهـا وحيـدةً لسنوات طويلة، لذلك كان نذرُ أبيه لـه بـأن يزوجـه فاطمـة في أول يوم يرجع فيه إلى أحضان القريـة، فلعـل نـصيبه يجعـل فاطمـة دون زواجٍ، فيكون له الأمران معاً.

وها هي قريتنا يا قاسم زهرة ذابلة عطشه كما تركتها متعطـشة للنحلة التي ستروي عطشها، وبما انك احتـضنت قريتنـا مـن جديـد، يجب أن يفي أبوك بنذره، وتستعيد القرية حيويتها، وتفرح لما أحببت تعجيله، ولم تكن هنا المشكلة، فالمشكلة مـن سـنختار ليكـون رئيـساً للجاهه ! ما دام سيد القرية ستكون صفته أب للعريس.

فتعددت الآراءُ.........

-فليكن أكبرُنا سناً وجيهاً.

-ولما لا يكون أكثرنا غناً بعد سيدَ الحَي.

فاختلف الجميع وانقسمَ أهل قريتنا إلى قـسمينْ، قـسمٌ مؤيـدٌ للرأيٌ الأول ومعـارض للـرأيٌ الآخـر، والعكـس صحيح بالنـسبة للقسمِ الآخر.

إلى أن اجتمعَ أهلُ القريـةِ علـى الجمـعِ بـين الـرأيينِ، حيثُ يكون رئيس الجاهةِ الأكبر سناً مـن بـين الأغنيـاء، فكـان (ابـوطراد)

مالك للأغنام ولكن كيف وهو قليل الاختلاط للناس، ملازم للنعاج، لكن يجب أن نوحد الفريقين.

فسقنا أبا طراد أمامنا وأدركناه بالحطةِ والعقال والثوب الأبيض الناصع،فثّيابه الرثةِ وملازمته لها دليلاً على امتنانه لمهنته مع إنه قادرٌ على لبس البرنيطة والبذلة الإفرنجية والطربوش المحمر بحمرة الورد.

ولكن قبيل المغرب، وفي وقت اجتماع الحضور، سُمِحَ لأبي طراد بمدٌ قدمه كونه كبير السن ويا ليته لم يفعل ذلك، حيث السروال الأبيض الذي انتشل من غبار الصحراء لونها فأصبح منتمياً لها باختياره اللون البني لسرواله!

فظهرت نظرات الخوف والاستغراب والوجوم بالإضافة إلى إحراج أبي القاسم

وازداد الوجوم لحظةِ تكريم لرئيس الجاهةِ بفنجان القهوة وكونهم جاؤوا للخطبة يفترض عليه وضعه أرضا حسب العادات والتقاليد ولكنه شربه دون أن يسمى عليه فكانت الكارثة و ازدادت بعدم تحريكه للفنجان وهذا يعني حسب عاداتهم أنه يريد فنجان آخر ماذا فعلت يا أبا طراد لقد أخطأت التصرف وماذا عن عيني أبو القاسم يا للهول فالشمس أقفلت على المغيب ولم يطرأ على الموضوع أي تغير فمن لحظة الجلوس حتى هذا الوقت لم يحصل

المراد مع العلم أنه يجب أن يكـون في أول اللحظـات وذهـب وقـت فتح فرصة أخرى للحـديث فكيـف سنتـصرف لا يوجـد حـل فكـر الجميع فلم يوجد حلا حتى فطن أحد الصبيان بالتلميح لأبـي طـراد بان القهوة فاترة فعادوا القهوجي بصنع واحـدة أخـرى حتـى ملئـت البسمة أفواه الحضور بعبقرية صبيهم فما لبث أبو طـراد إلا أن أدرك الوضع ولما فعل الصبي ذلك حتى وضـع الفنجـان وتحـدثوا بالخطبـة كعادتهم فانتهت الحلقة بالموافقة شاكرين الصبي فعلته وتصرفه بـشان فنجان القهوة .

النهاية

قصاصات ورق

كان الصف مكتظا، وكان من الصعب على معلمي أن يراني كوني أقصر من في الصف، فوقفت على مقعدي ورفعت يدي وسط عشرات الأيادي، وقلت بصوت أقرب لضجيج بريء : أنا. مضيت برفقة معلمي إلى غرفة الإدارة، وقال معلمي للمدير أعتقد أن هذا الطالب سيكون جيدا. ابتسمت وفي داخلي ارتجاف أجهل مصدره والجو البارد منه بريء.

مضيت ليلتي وأنا أكتب ما يليق بضيوف مدرستنا من كلمات ترحيبية، وأدخلت عقلي لمعصرة الكلمات لعلي أخرج بما هو مبهر ويليق بالضيوف، فصوت التصفيق الخفي ما زال يعبث بأذني عندما صفق معلمو وطلبة مدرستنا بحرارة لعلي الذي يكبرني بأربع سنوات عندما ألقى كلمته الإذاعية والتي ظنوا بأنها متميزة، فبت ليلتي وأنا أحلم بطريقة التصفيق ونوعية المدائح التي ستنهال علي بمجرد إلقائي كلمتي الخاصة بالضيوف وخصوصا عندما يعلموا بأنني من كتبها، إذا ستسقط كلمة علي من عيونهم وستحل مكانها كلمتي فحسب.

الطريق ما بين بيتي ومدرستي بعيد فانتهزت بعده للغوص ببحر أحلامي، واستغنيت وقتها عن رفيق دربي إبراهيم ومضيت وحدي لأتمكن من تشكيل الصور الايجابية التي ستحوم فوق مخيلتي بجناحين حقيقين مجرد انبهار الضيوف من كلمتي ومدى بلاغتها وبت أشكل على وجهي ملامح التواضع المتصنع الذي سأظهر به عندما يثنوا على أسلوب كتابتي المتمكن وخصوصا أنني ما أزال في هذا السن الصغير.

في دقيقتين وربما أكثر بثوان معدودة انتهيت من القاء معسول الكلام، وسنحت الفرصة لأن يتحقق أول أحلامي بالتصفيق الحار، ولكني ما أزال أنتظر المديح المنصب على كاتب كلمتي. لكن ما سمعته خلاف ما انتظرته فلقد شكر المدير من كتب لي الكلمة وطلب مني معلمي بأن أجعل الذي كتب كلمتي بأن يكتب لي المزيد في الجولات الإذاعية القادمة فربما أنه أبي أو أمي. ابتسمت وترقرت دموع كثيفة في عيني حسبوها انها لألئ فرح لما حصل.حاولت أن أدافع عن نفسي لكني خشيت أن يأذن سجان دمعتي لها بالتحرر وفي نهاية المطاف أنا رجل فهكذا علمني والدي وعلي أن أنفذ.

لم يغرب عن بالي أبدا ما أصاب علي من سهام مادحة منتشلة من كنانة معلمي المدرسة، ومع ذلك لم يشكك أحد في كتابته، وعندما وصل الأمر لكتاباتي بدأ الشك يأخذ مكانه في قلوب

المتلقين لينكروا بمهارة الإنكار ما كان مني، وكأنني صنعت قنبلة نووية من نوع آخر أو كأن أصحاب الكتابات يملكون عقولا لا تتكرر على غيرهم وربما علي أنا بالذات.

دخولي للمرحلة الإعدادية أهلني للمشاركة في المسابقة الثقافية التي تجرى على مستوى مديرية التربية التي تضم مدرستنا، حينئذ دخل المعلم نفسه لغرفة صفنا وهذه المرة دون أن يوجه طلبه لجميع طلبة الصف فربما أنه لا يرغب برؤية المزيد من الأيادي وهي ترتفع في فضاء الصف، فقد توجه لي وطلب مني المشاركة في هذه المسابقة وأنه يتوجب علي كتابة نص أدبي من جنس معين كي أتمكن من المشاركة، في بداية الأمر الفرحة لم تقدر على تملك قلبي لشدتها فأخيرا قد اعترف بحق قلمي في الكتابة، فقلت له بصوت يرتجف فرحا:

-سأبدأ بالكتابة من اليوم

-اعلم أنك مجتهد، لكن ليس من الضروري أن تكتب أنت إنما دع من كتب لك الكلمة الترحيبية بالضيوف ليكتب لك.

ربما أنه قال جملته من دون أن يعي مدى الشرخ الذي أحدثه على جدار قلبي الغض، ربما أنه قال جملته تلك دون أن يدرك مدى الإحباط الذي سيستولي على كياني جراء بخس قلمي حقه. عدت إلى بيتي والحزن جللي الأعظم، سألني والدي عما يؤرقني وبعد

تحقيقات مريرة أجبته بما كان فضحك ضحكة حكيم وأردفها جملة أيقظتني مما أنا فيه وغير رأيي وفكرتي عن عدم المشاركة.

-وما يدريك ربما يقتنع مسؤولو المسابقة وبالأخص المحكمين ويدركوا أهمية قلمك في الأدب فيكون لك مالم تجده عند معلمك.

لقد حركت كلماته شخص الدافع بداخلي ومضيت قدما عند عتبة أحلامي لعلي أطرق أبواب الواقع وأدخله من أوسعها، كتبت النص في ليلتي تلك وفي الصباح ذهبت لمدرستي وأعطيت معلمي النص وقد رأيت علامات الانشراح على وجهه عندما كان يقرأ كلماتي وسألني هذه المرة عن قرابة الشخص الذي يكتب لي فقلت له بكل ثقة أنا من يكتب وليس أي شخص آخر. ضحك ضحكة مختلفة تمام الاختلاف عن ضحكة أبي، وأخالها ضحكة استهزاء أو ربما شفقة أو شيء آخر غير مريح.

جلست أما ثلاثتهم وبدأ كل واحد فيهم يسألني عن الموضوع الذي كتبته، وأنا كنت أجيب عن كل سؤال بلهفة إلا أن وصل أحدهم إلى السؤال الذي كنت أخشاه لا لثقة متزعزعة أصابتني إنما لتقليل من قدرات أصابتهم.

-من كاتب النص يا بني

-أنا من كتبت النص، فلو كان غيري لما تقدمت للمسابقة

ضحك السائل بتعجب وهو مكذب لواقعي، وتعجب بشدة مدى وقاحتي في الإجابة على حد تعبيره مع أنه لم يصرح بذلك

صراحة. تركت طاولتهم وخرجت والدموع تصر بأن تلازمني فهي صديقة مخلصة.

سألني معلمي عن سبب بكائي، هل هو عدم نجاحي ،فهذا لا يعني نهاية الحياة، لكن ليس هذا هو السبب فالسبب أخشى أن أقوله لأن معلمي نفسه لم يقتنع بأنني أنا كاتب الموضوع.لكن وبعد ضغط مرير منه أفصحت له عما دار في الجلسة تلك وأظن أنه صدقني فدموعي المنسابة وحرقتي على قلمي ودفاعي عن موضوعي كانت أدلة كافية لأن يصدقني معلمي. فطلب مني أن أكفكف دموعي وأدخل الطمأنينة لقلبي وأقسم لي بأنه من مصدقيني وليس هذا فحسب إنما طلب مني أن أكتب المزيد، وشجعني على الكتابة والمواصلة على الدوام.

.... ربما أنها شهور مضت حتى كان بحوزتي أوراقا عديدة من أدبيات متنوعة، فانقض عليها معلمي كوحش مفترس فانشرح قلبي لاهتمامه، لكن توقعاتنا لا تصيب دائما وأقدارنا لا تسعفنا في كل المواقف، ما هي أيام إلا وكتاباتي تنشر باسم شخص أعرفه جيدا، شخص شجعني لأكتب له وأن استمر في الكتابة، شخص لم يصدق بأن هذه الكتابات تنساب بمداد صبي، فهي تليق بالأكبر منه سنا، تليق به هو بالذات، إنه معلمي.

كلحظة دفاعية لا إرادية ذهبت للمدير وبيدي نسخ من أوراقي وشكوت له معلمي ولم أجد منه سوى ضحكة، لكنها هذه المرة ضحكة من نوع آخر، ضحكة لم أسمعها في حياتي قط، عدت أدراجي ولم أحاول بأن أشكي معلمي للمسؤولين الأعلى سلطة منه

فأذني ليست بحاجة لأن تسمع المزيد من الضحكات، كل الذي فعلته أنني حزمت أوراقي بكلتا يدي وخرجت من باب المدرسة وأنا أمزق بأوراقي ورقة تلو ورقة ماضيا نحو بيتي تاركا قصاصاتي وهي تتبعثر خلفي.

قضاء حاجة

لأقضي حاجة! هكذا أجبتهم جميعا عندما سـألوني إلى أيـن ؟ تركت مجلسهم بالصالة العامة ووجهت وجهتي نحو الحمام.في نظـري أن أفعل أي شـيء إلا الكـذب والحلـف باسـم الله كاذبـا، فهـذا مـا يخيفني ويرعبني من دون غيره. لذلك دخلت الحمام وقتلته ثم قطعت الجثة ووزعتها بالمراحيض، غسلت بقع الدماء الأخيرة التي ما زالـت على يدي إثر قضاء الحاجة، ومسـحت جـبهتي بعـدما أخـذت نفـسا عميقا، وخرجت وكأن شيئا لم يكن.

نصف ساعة حتى اكتشفت الجريمة، وذلـك لانـسداد المجـاري وانعدام استمرارية المياه المشبعة بالفضلات والدماء عبرهـا. لا أدري كم شخص دخل الحمام خلال النصف سـاعة هـذه، لكـن الجهـات المختصة تمكنت من حصر معظمهم والتعرف على هويتهم من خلال طريقة ما، وأنا بالطبع كنـت بينهم لأن جميـع الحـضور الـذين كنـت برفقتهم أقروا بدخولي الحمام.

أخذونا في سـيارة الـشرطة، ووضـعونا بالـصندوق الخلفـي، وبعد صراع مرير تمكنت بالجلوس بالقرب من الـشباك ذي المربعـات

الدقيقة، تأملت بالدنيا وطاف هاجس ما على مخيلتي، سألني باستغراب كم من الضحايا سيفتك بهم لمجرد قضاء الحاجة؟ !لمجرد تمويه الناس لمقصد وفي أعماق النفس يستقرهناك مقصد آخر أبشع وأمر.

وصلت السيارة المركز، أدخلونا في زنزانة مظلمة مخيفة، لم أكن افكر بكم طالت المدة التي تركونا فيها دون أي اهتمام، لكني كنت افكر فقط بخشية أن يجني علي الدهر وأن أنفض أنفاسي الأخيرة في هذا المكان! فأسعفني من التفكير ثلاثة من رجال الشرطة، عندما دخلوا علينا ليسوقونا أمامهم لحو حجرة القاضي، هناك بدأ العد التنازلي وبسرعة كبيرة لنبضات القلب، كان منظر القاضي مرعبا، وأكثر ما رعبني هو كتاب الله الذي سأضع يدي عليه وأقسم بقول الحقيقة لا شيء سوى الحقيقة، كنت آخر المتهمين استجوابا، الأسئلة كانت متقاربة بعض الشئ لأسئلتهم، كالسؤال عن ساعة دخولي المرحاض، وعن وجود أناس غيري في المرحاض في تلك اللحظة، وأسئلة أخرى مشابهة تخصه أكثر مما تخصني، إلى أن وصل إلى السؤال المشؤوم والذي من خلاله سأفصح عن سبب دخولي الحمام، ولكن مهما كانت النتيجة فلن أكذب ولن أقسم كذبا!

-لماذا دخلت الحمام؟

ضحكت وفي داخلي رغبة بالتملص، فضحك الحضور لضحكتي.

-هل نحن هنا في مسرحية هزلية! لا تنس أنك أمام حضرة القاضي أجب على قدر السؤال.

- ولمَ يدخلون الناس المرحاض؟!

- قلت أجب على قدر السؤال وإلا...

- كي أقضي حاجتي.

- أهذا كل شيء لا تنس أنك وضعت يدك على...

- نعم بالتأكيد، أقسم أنني دخلت الحمام لقضاء حاجة ليس أكثر.

خرجت من باب المحكمة الخارجي، محملقا بالدنيا، ناظرا للشوارع، مدققا بالناس، مشفقا عليهم، فكم أستخف ويستخف غيري بعقولهم! كم نضحك عليهم ونخدعهم دون أن نضطر حتى للكذب، نلفت أنظارهم حول مقصد، وفي بالنا تشغلنا غاية ما بعيدة كل البعد عن ذلك المقصد، دون أن يفكروا ولو للحظة أن مجرد كلمة قضاء حاجة تجر وراءها سيلا من الدماء والدموع.

النهاية

للصويا طعم آخر

انتصفنا كانون، وموعد جديد لقطاف الزيتون، في هـذا الـشهر استقرت فكرة ما في مخيلتي، نعم إنها فكرة جيدة، لما لا أفعلـها لما لا أردع منقوع زيت الصويا لمدة قليلة وابعده عن الأفواه العشرة.

شهر واحد في قطاف الزيتون سآخذ مقابلـه لتريـن مـن زيـت الزيتون، حينئذ بإمكاني بالفعل أن أقول للمعلم أنـني أفطـرت زعـتر وزيت، فعندما يريد معلم التربية المهنية أن يطمئن على صحتنا يسألنا عن افطارنا وحينمـا يـصل الـدور لـي أقـول زعـتر وزيـت فيطمـئن لإحتواء زيت الزيتون على العديد من العناصر الهامـة للجـسم، هـو يعتقد أنه زيت زيتون، مستبعد تماما فكرة أننا ممكن أن نغمـس الخبـز بزيت الصويا أو ما شابهه ونكسوها بالزعتر.

أمي كعادتهـا مـا زالـت تـوفر وتقتـصد لأن أبـي لا يـستطيع إحضار متطلبات البيت بأكملـها- كمـا يقـول- وحينمـا تـأتي أمي يكون الرد كالعادة وحالا دبريهم بأي شيء " والله نحن بنعمة واحـسن من غيرنا" هذا الجواب المعهود.

الحمد لله علـى أيـة حـال لـذلك سـأعمل الـشهر وسـأجلب زجاجة زيت الزيتون، نعم سأحضرها، عملت بخفية عن أهلـي طيلـة الشهر، فلقد كنت أذهب بعد الدوام في المدرسة إلى مزرعة أبي علـي

وأساعدهم في قطف الزيتون. والآن حان موعد عصره، ذهبنا إلى المعصرة ورأيت تدفق الزيت من الصنابير.

-ياه ما أكثر الزيت!

قلتها بصوت مرتفع لتقع كلماتي في أذن أبي علي ليرد عليها قائلا

-قل ما شاء الله يا بني.

-نعم، ما شاء الله

لقد نسيت هذه الجملة العظيمة، لكن ما ذنبي أنني أفتقد كثيرا من الأشياء في البيت حتى نسيتها- ما شاء الله- أقتربت قليلا من حفرة إسقاط الثمار المباركة، لأستنشق وبعمق الرائحة الزكية التي كدت أنساها وآخذ ذلك النفس العميق الذي أستهويه، قال أبو علي لي احذر أن تقع، كان يحذرني وأنا أتمنى أن أحقق تلك الرغبة بأن اقع واغرق فيه بالكامل بدلا من أن أغرق في تيار الجوع فأخرج منقوعا بكامل جسدي بدلا من أن تغرق أطراف أصابعي فقط في صحن زيت الصويا.

عدت إلى البيت وأنا أحمل الزجاجة، كنت أحضنها بحرص، وكأنها ستفلت مني، وتهرب عني بعيدا، تماما كما كنت أحاول أن أهرب زيت الصويا عن فمي، لكني لا أمكث برهة حتى يعيدها الجوع إلى فمي، فكرت لوهلة بأن أمزق الكيس الذي يحتضن الزجاجة، كي يراني الجيران وأنا أحمل زجاجة زيت الصو... أقصد زيت الزيتون.

دخلت بيتنا، أبي لم يكن موجودا، استقبلتني أمي على مضض، فتحت الكيس على مهل، والابتسامة تتسع شيئا وشيئا على

فمي، أغمضت أمي عينيها بعدما رأت ما في يدي ثم فتحتهما، قالت: ما هذا؟ قلت: كما ترين زيت زيـ تون!

... وأخبرتها الحكاية، لكن مجرد ما سمعت الحكاية سرعات ما تحول هدوءها التام إلى بركان ثائر. قائلة : خدعتني ولم تدرس عند صديقك وكنت تعمل. إذن هذا سبب رسوبك بالامتحانات !

-نعم يا أمي رسوبي في امتحانات الشهر الأول فقط، أعدك بأنني سأعوض رسوبي بنجاح باهر في الشهر الثاني.

- كل هذا لماذا؟! لتحضر هذه الزجاجة التافهة !

- التافهة! التافهة يا أمي هل أصبح حلم كل واحد فينا تافه؟ هل أصبح توفيرك لأبي هو العظيم؟!

- أبوك ليس بقادر.

- بل يقدر. نعم يقدر، وهل حال أم إبراهيم جارتك أفضل من حالنا!

-ما بها أم إبراهيم.

-حالتهم المادية أسوأ من حالتنا ومع ذلك تخاف من أن يأتي يوم تأكل فيه زيت القلي وذلك لغلاء زيت الزيتون هي تخاف من المستقبل، ونحن نعيش في ذلك المستقبل منذ سنوات! ولم نعرف لزيت الزيتون طعم، كله على الصويا بطوننا تقطعت من كثرته.

-قلت لكم مرارا تخيلوا طعمه زيت زيتون ثم ما به زيت الصويا أصلا للصويا طعم آخر.

-نعم طعم قذر.

-استغفر ربك.

-استغفر الله، لكن ماذا تريديني أن أفعل واخوتي يحملقون بأعينهم نحو شطائر زملائهم وهي مشبعة بزيت الزيتون وتقولين لي طعم آخر أي طعم هذا!

عيناي باتتا حمراوان من شدة البكاء على حالنا، وأمي ما زالت توفر يوما عن يوم، كل هذا على حساب لقمتنا وخوفا من المستقبل، بعد هذا أعدت لي أمي شطيرة زيت زيتون كي آكلها ارضاء لي قلت لها لا داع للشطيرة الآن، دعيها مصروف للغد، قالت ستيبس، قلت لاباس، سأبللها بالماء وأسخنها وتصبح طازجة!

أيام وأيام مضت بعد زجاجة زيت الزيتون ولم أر أمي تضع على المائدة سوى زيت الصويا سألتها عن السبب أجابت أخشى أن يتعود اخوتك على زيت الزيتون ثم يأتي ذلك اليوم الذي سيفقدوه ثم لا يأكلون زيت الصويا.

خفت أن أسألها ولو لمرة لم لا يحضر أبي كل شهر بالإضافة لزيت الصويا زجاجة صغيرة من زيت الزيتون. لكني خفت ثورتها ثورتها المعتادة والتي تظهر عندما نأتي بسيرة أبي بما لا تهوى. حولت السؤال لسؤال آخر

- اذن لمن تركت زجاجة زيت الزيتون؟!
- لضيوف أبيك فقد أخبرني بأنه سيرتاد عليه ضيوف هذه الأيام.

سألتها السبب لكنها تجهله، لاحظت هذه الأيام كثرة زوار أبي وهم أنفسهم يأتون في أيام متقاربة ويتمتمون بحديث لا افهمه، ويتعشون عندنا ثم يذهبون فالأول مرة أرى أبي كريما يحضر عشاء لم نلحظه من قبل وكان يريد إحضار زجاجة زيت زيتون واحدة فقط للضيوف لكن أمي منعته وقالت يوجد عندي واحدة

ولما تكلف نفسك ما دام الله موسعها فابتسم لها وخرج، هي أيام وكادت زجاجة الزيت التي أحضرتها أن تنفذ فقطرت أمي آخرها للضيوف وأنا أراقبها قلت أمي لا يكفي هذا، فردت أعلم هذا لذلك أحضر لي زيت الصويا قلت وهل ستقدمينه للضيوف، فردت على الفور وهل أنا مجنونة كي أطعمه للضيوف! تعجبت لها لا تطعمه للغرباء وتطعمه أولادها لكني رأيت جسن تدبيرها وأيقنت مدى قوة توفيرها عندما أضافت لزيت الصويا الكركم وأضافة عليه قطرات زيت الزيتون لإعطاء النكهة!

حملت طبق العشاء ودخلت غرفة الضيوف كي أقدم لهم العشاء وسمعتهم يقولون مبروك يا صديقي فتطفلت على حديثهم قائلا:

-علام مبروك يا عمي

-على زواج أبيك، سيتزوج ابنتي

فتركني لصدمتي وحول السؤال لأبي سائلا هاه والآن كيف ستدفع المهر معجلا أم مؤجلا فأجاب أبي بلهجة الشره: بل معجلا وهل أنا من يؤجل مصالح الناس، فاستعجب الضيف قائلا لكن حالتك يا صديقي لا تسمح لك بأن تؤمن مثل هذا المبلغ الكبير مؤجلا فمن أين ستدبره خلال هذه الأيام القليلة فقلت بعدما ألقيت طبق العشاء لا إراديا على ملابسي وسال عليها زيت الصويا.

-سيؤمن المهر يا عمي لا تخشى هذا.

فقال لي الضيف بلهجة الملهوف ومن أين يا ابن ابيك قلت والحسرة تكاد تقتل قلبي الغض: من توفير أمي فللصويا طعم آخر!

النهاية

نور عيني

- قطع البازيلاء جيدا. قطعها قطعا صغيرة، ولا تنس ري الفول، أطعم الدجاجات وسرح الماعز. خذ كتابك معك. استغل وقتك جيـدا، ثم تناول طعامك.تناوله بطريقة مؤدبة فلا تلتهمه كالمعتاد، أريدك أن تتم أمورك غداً على اتم وجه قبل أن أعود من عند الطبيب هل تفهم؟!

- جدتي كفى. فإنني أقوم بهذه الأعمال كل يوم، احـذفي نـصفها اليوم على الأقل.

- نفذها كلها، فكلمتي لا تصير كلمتين.

- جدتي!

- اخرس.

- جدتي ضعي يدك على شـعري وفلليـه، أشـعر براحـة عنـدما تفعلين هذا.

- نم، وأنت ساكت.

- أرجوك جدتي، فقد كانت أمي تفعل هذا قبل وفاتها.

- وأنا أفعل ذلك لك أيضا في بعض الأحيان، الم اكـن لـك مثـل أمك.

- بلى، ولما لا تفعلين اليوم.

- حسنا، ولكن لا تزعجني بصوتك.

- اوه جدتي، أحبك كثيرا فمهما تفعلين بي ومهما ثقلتي علي من الواجبات فإني أحبك.

- وأنا لا أحبك، وأنتقم بكرهي لك من خلال أعمال البيت.

- جدتي. إنك لا تقولين الحقيقة. من هـو مثلـك لا يكـره أحـدا فكيف لو كان حفيدك.

- إني أمازحك بني، أنا لا أكتفي بحبك فقط إنما قد أموت دونك.

- بعيد الشر

- الموت ليس بشر

- لو لم يكن شرا لما طال أبي وأمي.

- استغفر الله، انس هذا ونم.

- جدتي كي أنسى احكي لي حكاية.

- لا تدلل ونم فأنت لست صغيرا

- جدتي أرجوك

- اصمت

- آه لماذا تلطميني هكذا

- ما بك لطمتك بخفة.

- لكن يديك خشنتان

- بل مجعدتان

- ولم؟!

- للعمر ضريبة.

- آه لا تكبري جدتي ارجوك. اريدك أن تبقي معي أكبر مدة ممكنة.

- وهل تضمن ذلك لو كنت في ريعان شبابي، هل تضمن حياتك بعد حياتي.

-لا.

-إذن. نم

- حسنا، لكن أحكي لي حكاية هذه المرة فحسب. جدتي ارجوكي

- حسنا، اسمع. كان يا مكان في قديم الزمان، أميرة جميلة أقضت عمرها في حب نور عينها.

- من نور عينها.

- اسمع دون تعليق ... وقد تنافس في حبها اثنان، أحدهما فارس أبيض قد حضي بها واخفاها بالكامل بين أحضانه والآخر....

هذا ما أذكره منذ ذلك الوقت، ومما لا أذكره هو بقية تلك القصة فقد غصت حينها بنوم عميق ولم أسمع بقية القصة، لكني أذكر جيدا إنه في في صباح ذلك اليوم رأيت نسوة من القرية أقبلن على بيتنا بعدما ناديت على جدتي مرات ومرات ولم تجب، فقامت النسوة بغسلها وأنا أرى جدتي مستسلمة لهن تمام الاستسلام، ثم مددن عليها غطاءً أبيض اللون قد أخفى جسدها بالكامل فتهمجت عليهن صارخا :

- أبعدوا عنها الفارس الأبيض لا تجعلوه يأخذها مني فهو لا يحبها أكثر مني.

بعد ذلك التهجم صحبتني إحدى النسوة خارج البيت وأنا أسمع أخرى وهي تعلق على كلماتي قائلة:

- هذا اليتيم المسكين يظن أن هذا القماش فارسا أبيض كفـارس الحكايات ولا يعرف أنه كفنا.

النهاية